المبشرون بالجنة
والمبشرون بالنار

تأليف/ الكاتب الإسلامى
الشيخ / بكر محمد إبراهيم

أسـم الكتاب : المبشرون بالجنة
والمبشـرون بالنار
المؤلف الشيخ / بكر محمد إبراهيم

الناشر / دار مصطفى للنشر والتوزيع

ت / 010-5834163
ت / 02-3059544

الطبعـة الأولـى / 2006
رقم الإيداع / 2006/11179

الترقيم الدولي : ISBN- 977-583-27-4
جميع التجهيزات والإخراج بالقسم
الفني لدار مصطفى للنشر والتوزيع

إهداء

إلى روح والدي ... رحمه الله

وإلى والدتي الحنون أطال الله بقاءها

وإلى زوجتي وأبنائي الأعزاء

أهدي هذا الكتاب

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

المقدمة

الحمد لله خلق خلقا وقال هؤلاء للجنة ولا أبالي، وخلق خلقاً وقال هؤلاء للنار ولا أبالي .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وهو القائل إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن العبد ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ [الأنبياء]

أشهد أن لا إله إلا الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ومصطفاه قال له ربه عز وجل :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

وقال له عز وجل: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [الشعراء]

وبعد ...

فهذا كتاب المبشرون بالجنة والمبشرون بالنار والبشارة فى الأصل إخبار بأمر سار لم يأت بعد ولكن قد تطلق على الأمر السئ لغرض بلاغى هو حسرة الموعودين بالسوء بعد استشرافهم لسماع كلمة البشارة فتكون حسرتهم مضاعفة.

جعلنا الله تعالى من أهل الجنة وصرف عنا عذاب النار بمنه وكرمه.

وهناك العديد من الرجال والأصناف قد بشروا بالجنة فى آيات قرآنية أو أحاديث نبوية، ومن هؤلاء العشرة المعروفون أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وهؤلاء جمعوا فى حديث واحد وهناك آخرون غيرهم مبشرون بالجنة مثل بلال بن رباح والمرأة التى كانت تُصرع، والرجل الذى كان يأتى على الصحابة ثلاثة أيام يقطر منه ماء الوضوء، وسليمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وجعفر بن أبى طالب، وزيد بن حارثة، وثابت بن قيس، وعمير بن الحمام الذى ألقى التمرات ودخل فى غمار المعركة وغيرهم وغيرهم.

ومن المبشرين بالنار أعاذنا الله منها إبليس، وفرعون، وهامان وزيره، وأبو لهب، وابن جرموز قاتل الزبير بن العوام وامرأة نوح وامرأة لوط، وبرصيصا العابد الجاهل وأبو رغال وابن قمئة الذى جرح الرسول ﷺ فى غزوة أحد وعمرو بن لُحيٍّ الذى جلب صنم هُبل إلى الكعبة وقَاتِلُ على بن أبى طالب وعاقر ناقة ثمود.

وهذا الكتاب يتناول معظم هؤلاء ويفصل تاريخ حياتهم وسيرتهم لنقتدى بالصالحين ونجتنب فعل الطالحين . ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من عتقائه من النار وأن يرزقنا سكنى الفردوس الأعلى وأن يتجاوز عن سيئاتنا ويعاملنا بالفضل لا بالعدل فهو سبحانه وتعالى ملجأنا وسيدنا ومولانا لا ملجأ منه سبحانه إلا إليه .

ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب فى ميزان حسناتنا ومن قرآه واستفاد منه ومن أخرجه لقراء العالم الإسلامى .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

الفقير إلى عفو ربه ...

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

المبشرون بالجنة
من الصحابة والتابعين
أبو بكر الصديق رضى الله عنه

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، القرشى التيمى يجتمع نسبه مع نسب رسول الله ﷺ فى جدهما مرة بن كعب. كان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ولقب بعتيق لجمال وجهه ولقول رسول الله ﷺ : «أنت عتيق من النار».

ولقب كذلك بالصديق لتصديقه خبر السماء كما صدق خبر رحلتى الإسراء والمعراج ويقول على بن أبى طالب رضى الله عنه : إن الله تعالى أنزل من السماء اسمه : الصديق وكان يكنى أبا بكر كما كان أبوه يكنى أبا قحافة وقد أدرك الإسلام، وأمه سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب التميمية وكانت تكنى أم الخير.

كان أبو بكر أبيض نحيفاً خفيف العارضين أجنأ لا يستمسك إزاره يسترخى عن حقويه، معروق الوجه غائر العينين، نانىء الجبهة عارى الأشاجع كان يصبغ بالحناء والكُتم.

كان أبو بكر طيب النفس فى الجاهلية ثم فى الإسلام فعن عائشة رضى الله عنها قالت : لقد كان حرم أبو بكر الخمر على نفسه فى الجاهلية وقد أجمع الصحابة وأهل السنة والجماعة على أنه أفضل البشر بعد الأنبياء عليهم السلام فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه صعد المنبر ثم قال : ألا إن أفضل هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر، فمن قال غير هذا فهو مفتر عليه ما على المفترى.

وقال النووى فيه : كانت لأبى بكر فى الإسلام مواقف رفيعة منها ثباته فيما أخبر به رسول الله ﷺ وترك عياله وأطفاله، وملازمته فى الغار وسائر الطريق، ثم كلامه يوم بدر حين شد أزر الرسول ﷺ ويوم الحديبية حين اشتبه على غيره الأمر فى تأخر دخول مكة، ثم ثباته يوم وفاة رسول الله ﷺ وخطبته فى الناس وتسكين نفوسهم ثم قيامه فى قضية البيعة لمصلحة المسلمين ثم قيامه فى قتال أهل الردة ثم تجهيزه الجيوش إلى الشام بالفتوحات وإمدادهم بالأمداد ثم قام بواحد من أحسن مناقبه وأجل فضائله وهو استخلافه على أمر المسلمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فخلفه فى الأمة أحسن الخلافة وكان له من التمهيد للإسلام وإعزاز الدين فهو حسنة من حسنات أبى بكر.

وقال فيه الإمام السيوطى : إنه أول من جمع القرآن، وأول من سماه مصحفا، وهو من أسلم من الرجال الأحرار، ومن حسن إسلامه أنه أسلم عندما دعاه رسول الله ﷺ دون أن يراجعه فعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ما كلمت فى الإسلام أحداً إلا أبى علىّ، وراجعنى الكلام، إلا ابن أبى قحافة، فإنى لم أكلمه فى شىء إلا قبله واستقام عليه.

شهد أبو بكر بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولازم رسول الله منذ بداية دعوته وواساه بنفسه وماله لهذا عندما اختلف معه أحد الصحابة قال رسول الله ﷺ : «إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدق وواسانى بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟- قالها مرتين ». وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أمن الناس علىّ فى صحبته وماله أبا بكر ..»

وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يجبؤه وهذا يتلتله وهم يقولون : أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا؟ قال علىّ : فوالله مادنا منا أحد إلا أبا بكر : يضرب هذا، ويجبأ هذا

ويتلتل هذا، وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله، ثم رفع علىّ بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم قال لمن حوله : أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم،، فقال : ألا تجيبوننى ؟ فوالله لساعة من أبى بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه.

ومن جليل مناقبه أن رسول الله ﷺ قال فيه : « لو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : **لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم** .

روى أبو بكر عن رسول الله ﷺ مائة واثنين وأربعين حديثاً منها ثمانية فى الصحيحين ويقول النووى : إن سبب قلة روايته عن النبى ﷺ رغم ملازمته له أن وفاته تقدمت قبل جمع الأحاديث واعتناء الصحابة والتابعين بسماعها وتحصيلها.

لقد كان أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ وخليله وخليفته من بعده وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ فى مرض وفاته فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ فى مرضه قال لها : « ادعى لى أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً، فإنى أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل : أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».

وعن جبير بن مطعم قال : أتت امرأة النبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه فقالت : أرأيت إن جئت ولم أجدك – كأنها تقول الموت – قال ﷺ : «إن لم تجدينى فأتى أبا بكر» كما قدمه رسول الله ﷺ للصلاة فى مرضه فعن عائشة رضى الله عنها قالت : لما ثقل رسول الله ﷺ جاء بلال يؤذنه بالصلاة فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس. قالت : فقلت : يا رسول الله إن أبا بكر

رجل أسيف. وأنه متى ما يقم مقامك لا يُسمع الناس، فلو أمرت عمر. فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس.

قالت : فقلت لحفصة : قولى له إن أبا بكر رجل أسيف، وأنه متى يقم مقامك لا يُسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال رسول الله ﷺ : «إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس. قالت : فأمروا أبا بكر يصلى بالناس، فلما دخل فى الصلاة وجد رسول الله ﷺ فى نفسه خفة، قالت : فقام يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان فى الأرض، حتى دخل المسجد، فلما سمع أبو بكر حسه ذهب ليتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ أن قم كما أنت فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبى بكر قالت فكان رسول الله ﷺ يصلى بالناس جالساً وأبو بكر قائما، يقتدى أبو بكر بصلاة رسول الله ﷺ ويقتدى الناس بصلاة أبى بكر.

وقد بويع أبو بكر بالخلافة فى اليوم الذى قبض فيه رسول الله ﷺ فى سقيفة بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ثم بويع البيعة العامة من الناس يوم الثلاثاء من غد ذلك اليوم، ثم قاتل المرتدين فاستأصل بذور الفتنة والخلاف فى الجزيرة العربية وقتل مسيلمة الكذاب والأسود العنسى ثم حج بالناس سنة اثنتى عشرة ثم صدر إلى المدينة فبعث الجيوش إلى الشام فانتصروا فى أجنادين عام ثلاث عشرة على الروم.

لقد كان أبو بكر رجلا صادق الإيمان قائما بأمر الله تعالى ورسوله ﷺ فتحققت له الولاية الحقة لله تعالى، وقد آتاه الله كرامات كثيرة أولها شهادة الرسول ﷺ له أنه من أهل الجنة ومن الكرامات التى وهبها الله تعالى له شفافية النفس وصدق الفراسة وهو ما يتضح جليا يوم خطب رسول الله ﷺ قبيل وفاته خطبة أشار فيها إلى دنو أجله ففهم أبو بكر دون الحاضرين وبكى فقد روى أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر

فقال : « إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله، فبكى أبو بكر فعجبنا لبكائه -

وفى رواية أخرى قال أبو بكر : فديناك بآبائنا وأمهاتنا - قال : فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به. ومن المواضع التى تستبين منها صدق فراسته استخلافه لعمر فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين استخلف عمر، وصاحبة موسى حين قالت استأجره، والعزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مثواه، ولما قيل لأبى بكر فى مرضه ماذا تقول لربك وقد وليت عمر ؟ قال : أقول له وليت عليهم خيرهم».

ومن مواضع فراسته أيضا أن الله وهبه إحساسا وشفافية يستشعر بهما الحلال والحرام فعن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : كان لأبى بكر الصديق مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة قيل أنه لم يسغها فقال له : من أين جئت بهذه.

فقال المملوك : مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطونى، فقال : أف لك كدت تهلكنى، فأدخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج فقيل له : إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بعس من الماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها فقيل له يرحمك الله، كل هذا من أجل هذه اللقمة؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به»، فخشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة.

وله قصة تدل على صدق ظنه فقد روى عروة عن عائشة زوج النبى ﷺ أنها قالت : إن أبا بكر الصديق كان نحلها جاد عشرين وسقا من ماله بالغابة

لما حضرته الوفاة قال : والله يا بنية ما من الناس أحد أحب إلىّ غنى بعدى منك ولا أعز علىّ فقراً بعدى منك وإنى كنت نحلتك جاد عشرين وسقا[1] فلو كنت جذذتيه[2] واحتزتيه كان لك وإنما هو اليوم مال وارث وإنما هما أخواك وأختاك فاقتسموه على كتاب الله،

قالت عائشة : فقلت يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته إنما هى أسماء فمن الأخرى ؟! فقال أبو بكر: ذو بطن بنت خارجة أراها جارية. وكان أبو بكر متزوجا من حبيبة بنت خارجة بن زيد من بنى زهير وكانت حاملا حين توفى عنها أبو بكر رضى الله عنه فتحقق له ظنه وولدت بعده أم كلثوم ولعلها كانت رؤيا منام أو شيئا من هذا القبيل وهى كرامة جعلها الله له فأخبر عن ولادتها أنها أنثى وقد كان أبو بكر يؤول الرؤيا قال عنه ابن سيرين أنه كان أعبر هذه الأمة بعد النبى ﷺ فقد كان يعبر الرؤيا فى زمن النبى ﷺ وكان الرسول ﷺ يقره عليها .

فقد روى ابن شهاب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى رؤيا فقصها على أبى بكر، فقال أبو بكر : يارسول الله يقبضك الله إلى مغفرة ورحمة، وأعيش بعدك سنتين ونصفا وكان كذلك. وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى أرى الليلة فى المنام ظلة تنطف السمن والعسل فأرى الناس يتكففون منها بأيديهم فالمستكثر والمستقل وأرى سببا واصلا من السماء إلى الأرض فأراك أخذت به فعلوت ثم أخذ به رجل من بعدك فعلا ثم أخذ به رجل آخر فعلا ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به ثم وصل له فعلا.

---

(١) سقا : ستون صاعا.

(٢) جذذتيه : قطعتيه.

قال أبو بكر : يارسول الله بأبى أنت والله لتدعنى فلأعبرنها. قال رسول الله ﷺ : «عبرها!» قال أبو بكر : أما الظلة فظلة الإسلام وأما الذى ينطف من السمن والعسل فالقرآن حلاوته ولينه وأما ما يتكفف الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل. وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذى أنت عليه تأخذ به فيعليك الله به ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به ثم يوصل له فيعلو به فأخبرنى يا رسول الله بأبى أنت أصبت أم أخطأت، قال رسول الله ﷺ : «أصبت بعضا وأخطأت بعضا». فأبو بكر بشر يصيب ويخطئ ولا يحسب خطؤه فى تأويل هذه الرؤيا عليه لأنه أول ما صح فى الرؤيا على قدر علمه وأخطأ فيما تعدى علمه إلى من هو أعلم منه الذى أتاه الله الحكمة والنبوة، رسول الله ﷺ .

ويقول الطحاوى فى تفسير هذا الحديث إن الصديق أبا بكر رضى الله عنه أول الظلة التى تنطف سمنا وعسلا بالقرآن وحلاوته ولينه وهو هنا أخطأ التأويل لأنه فسر العسل ولم يفسر السمن حيث إن السمن هو السنة فكان حقه أن يقول : القرآن والسنة وأخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن المسيب قال : رأت عائشة رضى الله عنها كأنه وقع فى بيتها ثلاثة أقمار، فقصتها على أبى بكر – وكان أعبر الناس – فقال : إن صدقت رؤياك ليدفنن فى بيتك خير أهل الأرض ثلاثاً، فلما قبض النبى ﷺ قال : يا عائشة هذا خير أقمارك.

ومن الكرامات العجيبة التى أعطاه الله إياها ما ذكر بشأن تسبيح الحصى بين يديه فعن أبى ذر رضى الله عنه قال : انطلقت ألتمس رسول الله ﷺ فى بعض حوائط المدينة فإذا رسول الله ﷺ قاعد، فأقبل عليه أبو ذر حتى سلم على النبى ﷺ، قال أبو ذر : وحصيات موضوعة بين يديه فأخذهن فى يديه فسبحن فى يده، ثم وضعهن فى الأرض فسكتن، ثم أخذهن فوضعهن فى يد أبى بكر فسبحن فى يده ..».

ومع ما ذكرنا من صفاته الكريمة ومناقبه العظيمة التى إن توفرت فى شخص غيره لدفعته إلى الاستكبار والغرور لكن هذا ما كان ليحدث لرجل زكاه الله ورسوله فتحققت له نعم الولاية لله تعالى التى تقتضى فى صاحبها أن يلين ويخفض الجناح للناس وقد ضرب أبو بكر الصديق أروع الأمثلة فى الرحمة والتواضع فقد روى ابن عساكر أن أبا بكر كان يحلب للحى أغنامهم فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحى : الآن لا يحلب لنا منائح دارنا فسمعها فقال : بلى لأحلبنها لكن وإنى لأرجو أن لا يغيرنى ما دخلت فيه عن خلق كنت فيه، فكان يحلب لهم .

ومن فرط شفقته وجزيل رحمته أنه أقبل إلى مكة ضحى فأتى منزله، وأبو قحافة جالس على باب داره فلما وصل أبو بكر إلى أبيه عجل أن ينيخ راحلته فنزل عنها وهى قائمة وهو يقول : يا أبت لا تقم ثم التزمه وقبل بين عينيه فبكى أبو قحافة فرحا بقدومه. ومن جميل تواضعه ما رواه معاذ بن جبل عن أبى بكر أنه دخل حائطا وإذا بدبسى فى ظل شجرة، فتنفس الصعداء ثم قال : طوبى لك ياطير! تأكل من الشجر وتستظل بالشجر، وتصير إلى غير حساب، ياليت أبا بكر مثلك».

وقد توفى أبو بكر رضى الله عنه ليلة الثلاثاء بين صلاتى المغرب والعشاء لثمانى ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستين سنة وغسلته زوجته أسماء بنت عميس بوصية منه، ودفن فى الحجرة الشريفة إلى جنب رسول الله ﷺ وصلى عليه عمر رضى الله عنه بين القبر والمنبر ولحده ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهم أجمعين.

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العُزّى بن رياح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى وأمه حنتمة بنت هشام أخت أبى جهل، فهو خال عمر بن الخطاب. كان يكنى أبا حفص كناه بها رسول الله ﷺ يوم بدر والحفص هو ولد الأسد، كما سماه رسول الله ﷺ بالفاروق لأنه أول من أظهر إسلامه فى مكة تحديا وفرق بين الحق والباطل فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب .

وقد كان عمر طوالا جسيما كان يمشى وكأنه راكب والناس من حوله يمشون وكأنه من رجال بنى سدوس وكان أروحا[1] كما كان أصلع شديد الصلع فى عارضيه خفة، سبلته[2] كبيرة، يصفر لحيته بالحناء وكان أعسر يسرا وفى أطرافه صهبة[3] وكان شديد الأدمة لكن ابن سعد يقول إنه كان أبيض تعلوه حمرة وقال الواقدى : لا يعرف عندنا أن عمر كان آدم إلا أن يكون من وصفه كذلك قد رآهَ فى عام الرمادة فقد تغير لونه حين أكل الزيت.

وكان عمر من أشراف قريش وإليه كانت السفارة فى الجاهلية فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم بعثوه سفيرا. أسلم عمر فى سنة ست من البعثة وعمره سبع وعشرون سنة قال عمر : لقد رأيتنى وما أسلم مع رسول الله ﷺ إلا تسعة وثلاثون رجلا فكملتهم أربعين. وقال الذهبى أنه أسلم بعد أربعين رجلا وإحدى عشرة امرأة وقد تحققت بإسلامه دعوة رسول الله ﷺ حين قال : «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب ، أو بأبى جهل بن هشام».

(١) تتقارب عقباه إذا مشى .

(٢) الشعر أسفل الرقبة .

(٣) صفوة تضرب إلى الحمرة.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان إسلام عمر فتحا، وكانت هجرته نصرا، وكانت إمامته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصل إلى البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا.

ولعمر بن الخطاب رضى الله عنه مناقب عديدة وأياد كريمة فى الإسلام فقد هاجر جهرا وشهد بدرا والمشاهد كلها، وهو أول من دعى بأمير المؤمنين، وأول من كتب التاريخ للمسلمين وأول من جمع الناس على صلاة القيام وفتح الفتوح ووضع الخراج ومصر الأمصار ودون الدواوين واستقضى القضاة، وهو أول من ضرب فى الخمر ثمانين وأول من حرم زواج المتعة، وأول من جمع الناس فى صلاة الجنازة على أربع تكبيرات.

وقد زاد فى المسجد النبوى ووسعه وفرشه بالحصباء وأضاءه بالفتيل وأخرج اليهود من الحجاز إلى الشام وأخرج أهل نجران إلى الكوفة وهو الذى أخر مقام إبراهيم إلى موضعه الآن وكان ملصقا بالبيت. وقد روى عن رسول الله ﷺ خمسمائة وتسعة وثلاثين حديثا.

وكان لعمر من الحكمة وصدق الفراسة والحدس والإلهام نصيب لم يصبه أحد وهى كرامة منحها الله له لما امتاز به من صدق السريرة وحسن متابعته لله تعالى ورسوله ﷺ وببركة دعوة رسول الله ﷺ له فقد روى ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ ضرب صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول : «اللهم أخرج ما فى صدر عمر من غل وأبدله إيمانا». فكان كما أخبر عنه رسول الله ﷺ : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه».

وعن عصمة بن مالك رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر»

وعنه أيضا قال إن رسول الله ﷺ قال : «قد كان فيمن خلا من الأمم مُحَدثون فإن يكن فى أمتى منهم أحد فهو عمر بن الخطاب وقال وهب فى معنى المحدث أنه الملهم فعن عمر رضى الله عنه أنه قال : وافقت ربى فى ثلاث فى الحجاب وفى أسارى بدر، وفى مقام إبراهيم وعن عمر رضى الله عنه أنه قال أيضا : وافقت ربى فى ثلاث، قلت: يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾ [البقرة]

وقلت: يارسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة، فقلت :

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ [التحريم]

فنزلت كذلك كما قال عمر : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، فأنزل الله تحريمها. وقد فصل عبد الله الشيبانى فى كتابه «فضائل الإمامين» واحدا وعشرين موضعا وافقه فيها ربه فى كتابه الكريم. كما كان له من صدق الفراسة ما يميز به بين الصدق والكذب قال الحسن : إن كان أحد يعرف الكذب إذا حُدث به فهو عمر بن الخطاب.

وعن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : ما سمعت عمر يقول لشىء قط : إنى لأظن كذا وكذا إلا كان ما يظن. ومما يشهد له بالفراسة والإلهام ما رواه نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن عمر خطب يوما بالمدينة فقال :

ياسارية الجبل ومن استرعى الذئب ظلم. قال : فقيل له : تذكر سارية وسارية بالعراق؟!

فقال الناس لعلى : أما سمعت عمر يقول ياسارية وهو يخطب على المنبر؟! فقال : ويحكم دعوا عمر فإنه ما دخل فى شىء إلا خرج منه. فلم يلبث إلا يسيرا حتى قدم سارية فقال : سمعت صوت عمر فصعدت الجبل. وفى رواية أخرى أن سارية لما قدم المدينة قال : يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتا ينادى ياسارية الجبل ثلاثاً، فأسندنا ظهورنا إلى الجبال، فهزمهم الله .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان عمر يخطب يوم الجمعة، فعرض فى خطبته أن قال : ياسارية .. فالتفت الناس بعضهم لبعض فلما فرغ سألوه، فقال : وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد، وإن جاوزوا هلكوا، فخرج ما تزعمون أنكم سمعتموه. وذكر الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة أن القصة ثابتة وهى كرامة أكرم الله بها عمر حيث أنقذ به جيش المسلمين من الأسر أو الفتك بهم، وهو ليس كما تزعم المتصوفة من باب الاطلاع على الغيب وإنما هو من باب الإلهام فى عرف الشرع أو التخاطر فى عرف العصر الحاضر وهذه الفراسة والإلهام لم تأت إلا بمراقبته لأوامر الله ومتابعته لرسول الله ﷺ فى السر والعلن فنأى عنه الشيطان ولم يستطع إليه سبيلا .

فعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إيه يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك» وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « ما فى السماء ملك إلا وهو يوقر عمر، ولا فى الأرض شيطان إلا وهو يفرق من عمر».

ومن كرامات الله التى أكرمه بها ما رواه قيس بن حجاج عمن حدثه قال: لما فتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص فقالوا : أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها. فقال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كان ثنتا عشرة ليلة خلون من هذا الشهر شبهر بونة عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو : إن هذا مما لا يكون فى الإسلام إن الإسلام يهدم ما قبله.

قال : فأقاموا شهور بونة وأبيب ومسرى والنيل لا يجرى قليلا وكثيرا حتى هموا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب، فكتب : إمنك قد أصبت بالذى فعلت وإن الإسلام يهدم ما قبله وإنى قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى هذا فألقها فى النيل.

فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

قال فألقى البطاقة فى النيل فلما ألقى البطاقة أصبحوا يوم السبت وقد وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة وقطع الله تعالى تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم وقد كان لعمر بن الخطاب كرامة إجابة الدعاء فعن خوات بن جبير رضى الله عنه قال : أصاب الناس قحط شديد على عهد عمر فخرج عمر بالناس فصلى بهم ركعتين وخالف بين طرفى ردائه فجعل اليمين على اليسار واليسار على اليمين، ثم بسط يديه فقال : اللهم إنا نستغفرك ونستقيك فما برح مكانه حتى مطروا.

وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية أن عمر لما فرغ من الحج سنة ثلاث

وعشرين نزل بالأبطح ودعا الله عز وجل فقال : اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى وانتشرت رعيتى فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل شهيدا وورد فى الصحيح أنه قال : اللهم إنى أسألك شهادة فى سبيلك وموتا فى بلد رسولك فاستجاب الله له وجمع له بين هاتين الدعوتين. وكان كذلك.

فقد رأى فى المنام قال : إنى رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلى وهى أنى رأيت كأن ديكا أحمر نقرنى نقرة أو نقرتين وقد أولها أنه سيلقى حتفه على يد رجل أعجمى لأن الديك يفسر فى الرؤيا رجلا أعجميا فجمع الله له صدق الرؤيا واستجابة الدعاء فطعنه أبو لؤلؤة المجوسى وهو قائم يصلى فى المحراب صلاة الصبح من يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين فضربه ثلاث أوست ضربات إحداهن تحت سرته فقطعت الصفاق .

فصلى عبد الرحمن بن عوف بالناس بأقصر سورتين بعد أن كادت الشمس تطلع فحمل عمر إلى منزله والدم يسيل من جرحه فجعل يفيق ثم يغمى عليه ثم سأل عمن قتله فقيل له هو أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فقال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى إلا على يدى رجل يدعى الإيمان ولم يسجد لله سجدة.

وأوصى عمر أن يكون الأمر شورى فى ستة من العشرة المبشرين بالجنة ومات بعد ثلاث ودفن يوم الأحد بالحجرة النبوية بعد أن استأذن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وصلي عليه صهيب بن سنان قال ابن إسحاق : كانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وقيل كان عمره لما قتل خمسا وخمسين سنة.

رحمك الله يا أبا حفص فبرغم ما تحقق له من كرامة لم تغيره الدنيا ولم يدخله حبها والركون إليها فقد قال فيه معاوية رضى الله عنهما : أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما نحن فتمرغنا

فيها ظهرا لبطن. فقد كان مثلا رائعا فى الزهد، متواضعا، حشن العيش، يرقع الثوب بالأديم ويحمل القربة على كتفيه مع عظم هيبته ويركب الحمار عريا والبعير مخطوما بالليف، وكان قليل الضحك لا يمازح أحدا.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : رأيت بين كتفى عمر أربع رقاع فى قميصه وقال عبد الله بن عامر بن ربيعة : حججت مع عمر، فما ضرب فسطاطا ولا خباء، كان يلقى الكساء والنطع على الشجرة يستظل تحتها، وعن عبيد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : حمل عمر بن الخطاب قربة على عنقه فقيل له فى ذلك، فقال : إن نفسى أعجبتنى فأردت أن أذلها.

وروى ابن كثير فى البداية والنهاية أن عمر لما قدم الشام لفتح بيت المقدس كان على جمل أورق تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، قد طبق رجليه بين شعبتى الرحل بلا ركاب ووطاؤه كيس من صوف، وهو فراشه إذا نزل ووسادة محشوة ليفا يضعها تحت رأسه إذا نام وعليه قميص من كرابيس قد تخرق جيبه.

فلما وصل نزل وقال : اغسلوا قميصى وخيطوه وأعيرونى قميصا فأتى بقميص كتان، فقال : ما هذا ؟ فقيل : كتان، فقال : فما الكتان ؟ فأخبروه.

فنزع قميصه فغسلوه وخاطوه ثم لبسه وجئ ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فلما سار جعل البرذون يهملج به فقال لمن معه : احبسوا، ما كنت أظن الناس يركبون الشياطين، هاتوا جملى، ثم نزل وركبه. وكان عمر يصلى بالناس العشاء ثم يدخل بينه فلا يزال يصلى إلى الفجر وما مات حتى سرد الصوم وفى عام الرمادة كان لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسود جلده وكان يقول : بئس الوالى أنا ! إن شبعت والناس جياع، وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء وكان يسمع الآية من القرآن فيغشى عليه فيحمل صريعا إلى منزله من الخشوع.

وقد سأل بلال أسلم : كيف تجدون عمر ؟ فقال : خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم، فقال بلال : لو كنت عنده إذا غضب لقرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه وقال ابن عمر رضى الله عنهما : ما رأيت عمر غضب قط فذكر الله عنده أو قرأ عنده إنسان آية من القرآن إلا وقف عما كان يريد.

ومن فرط تواضعه وخشيته ما رواه عبد الله بن عامر رضى الله عنه قال : رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنة من الأرض فقال : ليتنى كنت هذه التبنة، ليتنى لم أخلق، ليت أمى لم تلدنى، ليتنى لم أكن شيئا، ليتنى كنت نسيا منسيا .

حقا لقد كان عمر جم التواضع فعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : أنا آخركم عهدا بعمر، دخلت عليه ورأسه فى حجر ابنه عبدالله، فقال له : ضع خدى بالأرض فقال ابنه : فهل فخذى والأرض إلا سواء ؟! قال عمر : ضع خدى بالأرض لا أم لك، فى الثانية والثالثة. وسمعته يقول : ويلى وويل أمى إن لم يغفر لى، حتى فاضت نفسه.

نعم لقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه مثالا يحتذى به فى كل شىء، كان تقيا ورعا زاهدا وإماما قويا عادلا وهذا رسول الله ﷺ يزكيه ويثنى عليه فعن ابن رعمر، وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا : قال النبى ﷺ : « بينا أنا نائم، رأيتنى على قليب عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين، وفى نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستقى فاستحالت فى يده غربا، قال رسول الله ﷺ : «فلم أر عبقريا من الناس يفرى (أى يعمل) فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن.

عثمان بن عفان رضى الله عنه

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة، القرشى الأموى. كان يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة وهى بنت عمة رسول الله ﷺ. ولد فى السنة السادسة فى عام الفيل.

كان عثمان رجلا ليس بالقصير وبا بالطويل حسن الوجه قال عنه موسى ابن طلحة : كان عثمان بن عفان من أجمل الناس وكان رقيق البشرة كثيف اللحية عظيمها أسمر كثير شعر الرأس له جمة أسفل أذنيه وقيل كان أصلع وكان يخضب بالصفرة ويشد أسنانه بالذهب، وقال ابن عساكر فى تاريخه أنه كان بعيد ما بين المنكبين، خدل الساقين، طويل الذراعين يكسوهما الشعر، وكان أحسن الناس ثغرا. وكانت قريش كلها تحبه حتى أنهم كانوا يضربون المثل فى شدة الحب للشخص والتعلق به بحب قريش لعثمان رضى الله عنه.

لقد كان عثمان ذا فضائل جمة ومناقب وافرة فقد أسلم فى أول الإسلام على يد أبى بكر الصديق رضى الله عنه وكان يقول : إنى لرابع أربعة فى الإسلام هاجر الهجرتين وتزوج ابنتى رسول الله ﷺ : رقية التى ماتت فى العام الثانى للهجرة ثم زوجه رسول الله ﷺ أختها أم كلثوم التى توفيت عنده سنة تسع من الهجرة ويقول العلماء : لا يعرف أحد تزوج بنتى نبى غيره لذلك سمى بذى النورين. وكان عثمان أشد هذه الأمة حياء بعد نبيها ﷺ فعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال : « ألا أستحى من رجل تستحتى منه الملائكة ؟».

شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ ولم يشهد بدرا لأنه كان يمرض زوجته رقية فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره لذا فهو يعد من البدريين

ولم يشهد كذلك بيعة الرضوان لأن رسول الله ﷺ كان قد بعثه إلى مكة رسولا فشيع أنه قتل فبايع له رسول الله ﷺ بيده، واستخلفه النبى ﷺ على المدينة فى غزوتيه إلى ذات الرقاع وغطفان.

وروى عن الرسول ﷺ مائة وستة وأربعين حديثا ومن فضائله كذلك أنه اشترى بئر رومة من يهودى بعشرين ألف درهم ووهبها للمسلمين، ووسع فى المسجد النبوى حيث اشترى موضع خمس سوار فى المسجد وجهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيرا وأتمها ألفا بخمسين فرسا.

وعن عبد الرحمن بن خباب قال : شهدت النبى ﷺ وهو يحث على جيش العُسرة فقال عثمان : يارسول الله علىّ مائة بعير بأجلاسها وأقتابها فى سبيل الله، ثم حض على الجيش، فقال عثمان : يارسول الله علىّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله، ثم حض على الجيش فقال عثمان : يارسول الله لله على ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله فنزل رسول الله ﷺ وقال : « ما على عثمان ما عمل بعد هذه شىء ».

ومن مناقب عثمان العظيمة جمعه الناس على قراءة واحدة وكتابة المصحف على العرضة الأخيرة التى درسها جبريل لرسول الله ﷺ فى آخر حياته لأن الناس قد اختلفت على قراء القرآن على الأحرف السبعة فاستدعى المصحف الذى كان أبو بكر قد أمر زيد بن ثابت بجمعه والذى كان عند أبى بكر فى حياته فلما توفى صار إلى عمر ثم من بعده إلى حفصة أم المؤمنين، فكتب عثمان عدة نسخ منه بعث واحدا إلى الشام وآخر إلى مصر وغيرها إلى البصرة والكوفة واليمن ومكة والمدينة لهذا سَميت المصاحف العثمانية.

بويع عثمان بالخلافة غرة المحرم سنة أربع وعشرين بعد دفن عمر بثلاثة أيام وكان عمره عند البيعة تسعا وستين سنة ودامت خلافته اثنتى عشرة سنة

إلا اثنى عشر يوما وفى عهده شهد الإسلام فتوحات عديدة ففتحت الرى وسابور والإسكندرية وأفريقيا وسواحل بحر الروم وغيرها .

ومن الكرامات التى منَ الله بها عليه أن الرسول ﷺ قد بشره بالجنة وأنه سيقتل مظلوما فكانت تحسب كرامة لعثمان ومعجزة تحسب للنبى ﷺ الذى أخبر بما سيحدث من بعده فعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى حديقة بنى فلان والباب علينا مغلق إذ استفتح رجل فقال النبى ﷺ : «يا عبد الله بن قيس، قم فافتح له الباب وبشره بالجنة». فقمت ففتحت الباب، فإذا أنا بأبى بكر الصديق، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ فحمد الله، ودخل، فسلم وقعد.

ثم أغلقت الباب فجعل النبى ﷺ ينكت بعود فى الأرض، فاستفتحت آخر، فقال : « ياعبد الله بن قيس، قم فافتح له الباب وبشره بالجنة». فقمت ففتحت، فإذا أنا بعمر بن الخطاب، فأخبرته بما قال النبى ﷺ ، فحمد الله، ودخل، فسلم وقعد. وأغلقت الباب فجعل النبى ﷺ ينكت بذلك العود فى الأرض إذا استفتح الثالث الباب، فقال النبى ﷺ : « يا عبد الله بن قيس، قم ، فافتح الباب له، وبشره بالجنة على بلوى تكون».

فقمت ففتحت الباب، فإذا أنا بعثمان بن عفان فأخبرته بما قال النبى ﷺ فقال عثمان : الله المستعان وعليه التكلان. وفى رواية أخرى قال : اللهم صبرا، ثم دخل فسلم وقعد وعن ابن رعمر رضى الله عنهما قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال : « يقتل فيها مظلوما – لعثمان ». وبعد سنوات وقعت الفتنة فى آخر عهد عثمان فحاصرته الدهماء والغوغاء وطالبوه أن يعتزل الأمر فأبى أن يعتزل أو أن يقاتلهم ونهى من معه عن قتالهم وأغلق بابه عليه حتى قُتل.

وقال المازرى : خلافة عثمان صحيحة بالإجماع وقد قُتل مظلوما قتله

فسقة من الهمة والرعاع وسفلة الأطراف والأراذل ولم يشارك فى قتله أحد من الصحابة الذين عجزوا عن دفعهم.

وقال الزهرى : ولى عثمان الخلافة اثنتى عشرة سنة ست سنين لم ينقم الناس عليه شيئا وكان فيها أحب إلى قريش من عمر لأن عمر كان شديدا.

فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم لكنه بعد ذلك ولى أقرباءه وولى مصر عبدالله بن أبى السرح فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه فكتب عثمان إليه كتابا يتهدده فيه فأبى أن يقبل ما نهاه عنه، وقتل رسول عثمان إليه فخرج من مصر سبعمائة رجل فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة ما صنع ابن أبى السرح بهم فقام طلحة فكلم عثمان وأرسلت عائشة إليه وخاطبه علىّ وطالبوه أن يعزل عامله على مصر ويعين آخر مكانه وأشار عليه الناس بمحمد بن أبى بكر، فأطاع عثمان وكتب عهده وولاه وخرج محمد بن أبى بكر وأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى مصر لخلع ابن أبى السرح فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط البعير خبطا كأنه رجل يطلَب أو يطلب.

فقالوا له : ما قصتك ؟ وما شأنك ؟ كأنك هارب أو طالب، فقال لهم : أنا غلام أمير المؤمنين، وجهنى إلى عامل مصر برسالة فسئل هل يحمل رسالة فأنكر فلما بحثوا معه وجدوا رسالة فقرأها أحدهم فكان فيها : إذا أتاك محمد وفلان وفلان فاحتل فى قتلهم، وأبطل كتابه. وقر على عملك حتى يأتيك رأيى، واحبس من يجيء إليك بتظلم منك، فرجعوا إلى المدينة بالرسالة مغاضبين فجمعوا طلحة والزبير وعليا وسعدا وبعض صحابة رسول الله ﷺ فأخبروهم بما كان من أمرها وأمر العبد الأسود.

فلم يبق أحد فى أهل المدينة إلا حنق على عثمان واجترأ سفلة القوم وحثالتهم عليه ونالوا منه حتى أنه كان على رأس المنبر يوما فسبوه وقذفوه

بالحجارة حتى سقط مغشيا عليه فاحتمل إلى داره وتفاقم الأمر حتى حاصره جماعة منهم ودخل عليه طلحة والزبير وسعد وعمار وعلى ونفر من الصحابة معهم الكتاب والغلام والبعير فقال له عليّ : هذا الغلام غلامك ؟ قال نعم ، قال : والبعير بعيرك ؟ قال : نعم، قال عليّ : فأنت كتبت هذا الكتاب ؟ - وكان عليه خاتمه - قال عثمان : لا، وحلف بالله ما كتبت هذا الكتاب، ولا أمرت به، ولا علم لى به ولا أمرت به ولا وجهت هذا الغلام إلى مصر.

وعرفوا أنه خط مروان أحد عماله على أفريقيا وكان عنده فى الدار وسألوه أن يسلمه لهم فرفض خشية أن يقتلوه فخرج أصحاب محمد ﷺ من عنده غضابا ولزموا بيوتهم وقال الناس : إن كان قد كتب الكتاب عزلناه وإلا سلم إلينا كاتبه مروان ومنعوه الماء والخروج للصلاة ولما بلغ الحصار أشده لزمه كثير من الصحابة وأبنائهم فبعث عليٌّ ابنيه الحسن والحسين إليه ليقوما على بابه بسيفيهما لحمايته وبعث الزبير وطلحة أبناءهما وصاروا جميعا يجادلون عنه ويناضلون دونه فرشقهم الناس بالنبال فخضبوا وجه الحسن بالدماء وأصابوا مروان بسهم وجرحوا محمد بن طلحة.

وأثناء هذا الحصار تسلق محمد بن أبى بكر الذى كان حانقا على عثمان لما جرى بينهما من قبل فدخل عليه فصرعه وأخذ بلحيته فقال له عثمان : والله لو رآك أبوك لساءه مكانك منى فتراخت يداه وأشفق عليه وانصرف وأثناء ذلك دخل عليه رجلان فصرخت زوجته فلم يسمع الناس صراخها من الجلبة والضوضاء فقتلاه فخرجت امرأته إلى الناس فقالت : إن أمير المؤمنين قُتل، فدخل الناس فوجدوه مذبوحا .

وبلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعدا وأهل المدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم من وقع الخبر عليهم فدخلوا عليه وهو مطروح فاسترجعوا، وقال عليّ لابنيه : كيف قُتل أمير المؤمنين وأنتم بالباب ؟ ورفع يده فلطم الحسن وضرب

صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وخرج غضبان ولما بلغ الزبير مقتل عثمان قال : إنا لله وإنا إليه راجعون وقال فيمن قتله تبا لهم ثم تلا قوله تعالى :

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) ﴾[يس]

ولما بلغ سعد بن أبى وقاص مقتله قال فيهم : اللهم أندمهم ثم خذهم. وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولا، وقال فيهم حسان بن ثابت:

قتلتم ولى اللـه فى جـوف داره	وجئتم بأمـر جائـر غير مهتـد
فهلا رعيـتم ذمـة اللـه بينكم	وأوفيتـم بالعهــد عهـد محمـد
ألـم يـك فيكم ذا بـلاء ومصدق	وأوفاكم عهدا لدى كل مشـهـد
فلا ظفرت أيمـان قـوم تبايعـوا	على قتل عثمان الرشيد المسدد

وروى عن عبد الرحمن بن مهدى أنه قال : خصلتان لعثمان ليستا لأبى بكر ولا لعمر رضى الله عنهما : ذكر منهما صبره على نفسه حتى قُتل. فقد أغلق بابه على نفسه وصبر واستسلم لموعود الله وهذا ليس ضعفا منه ولا رضى بالظلم لأن المسلم لا يستضعف لكنه خشى أن تنشب حرب تنتهى بإراقة دماء المسلمين فكف يده عن القتال وأمر من معه ألا يقاتلوا وأبى أن يخلع نفسه من الخلافة ويترك أمة محمد بعده يعدو بعضها على بعض ويولى من يختاره السفهاء فيقع الهرج ويفسد الأمر وما كان عثمان لينزع قميصا قمصه الله إياه فيخون الله ورسوله ويخفر ذمة رسول الله ﷺ الذى قال له : « إن الله لعله يقمصك قميصا - أى الخلافة -، فإن أرادك أحد على خلعه فلا تخلعه، ثلاث مرات».

وقال كعب بن مالك :

فكف يديه ثم أغلق بابه   وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهــل النــــار : لا تقتلوهـم   عفا الله عن كل امرىء لم يعاتـل

فكيـف رأيـت اللــه صـب عليهـم   العداوة والبغضاء بعـد التواصــل

وكيـف رأيـت الخـير أدبر بعـده   عن الناس إدبار الرياح الجوافل؟

وكان لعثمان فى هذه الحالة الشديدة من الحصار من الكرامات التى أكرمه الله بها ليثبت فؤاده وهى الرؤيا الصالحة فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : «إن عثمان أصبح فحدث الناس فقال : إنى رأيت النبى ﷺ الليلة فى المنام فقال : يا عثمان أفطر عندنا فأصبح صائما وقُتل من يومه.

وقيل إنه لما أصبح قال : لن تغيب الشمس غدا إلا وأنا من أهل الآخرة وفى حديث آخر قال : إنى رأيت رسول الله ﷺ البارحة فى المنام ورأيت أبا بكر وعمر، وقالوا لى : أصبر فإنك تفطر عندنا القابلة، ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه فقُتل وهو بين يديه وسال دمه الطاهر على المصحف الشريف. وصلى عليه جبير بن مطعم وقيل المسور بن مخرمة وقيل صلى عليه الزبير ابن العوام بوصية منه وقيل منع الناس من الصلاة عليه ودفن ليلا بالبقيع ولحده عبد الله بن الزبير.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

هو على بن أبى طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى، القرشى الهاشمى. ابن عم الرسول ﷺ وصهره على ابنته فاطمة أبو السبطين الحسن والحسين وهو أول هاشمى ولد بين هاشميين وأول خليفة للمسلمين من بنى هاشم. أبوه عبد مناف بن عبد المطلب الذى كنى بابنه فعرف بأبى طالب، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف وقد أسلمت وهاجرت وماتت على الإسلام. كان علىّ يكنى أبا الحسن كما كناه رسول الله ﷺ أبا تراب فعن سهل بن سعد قال : ما كان لعلى اسم أحب إليه من أبى التراب وإن كان ليفرح إذا دعى بها. وقد كناه رسول الله ﷺ - لأنه جاء بيت فاطمة فلم يجد عليا فى البيت فقال لها أين ابن عمك؟ فقالت : كان بينى وبينه شىء فغاضبنى فخرج فلم يُقِل عندى فقال رسول الله ﷺ لإنسان : انظر أين هو ! فجاء فقال : يا رسول الله هو فى المسجد راقد فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول : قم أبا التراب ! قم أبا التراب !.

كان علىّ رجلا آدم شديد الأدمة أشكل العينين عظيمهما، أصلع، أقرب إلى القصر عظيم اللحية قد ملأت صدره ومنكبيه أبيضها وكان كثير شعر الصدر والكتفين حسن الوجه، ضحوك السن، عظيم البطن.

أسلم صغيرا وهو ابن سبع سنين وقيل تسع سنين والأرجح ما قاله ابن إسحق أن عمره كان عشر سنين وكان مما أنعم الله به عليه أنه ربى فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام فقد كفله رسول الله ﷺ فى سنة المجاعة لضيق حال والده، ومن مناقبه أنه أول من أسلم من الصبيان وهو أول فدائى فى الإسلام فعندما أراد رسول الله ﷺ الهجرة دعا عليا فأمره أن يبيت فى فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ففعل وأجله رسول الله ﷺ ثلاث ليال وأمره أن يؤدى

الامانات التى كان الناس يستودعونها رسول الله ﷺ إلى أهلها ثم لحق برسول الله ﷺ فى المدينة.

شهد علىّ مع رسول الله ﷺ بدرا وكان أول من بارز فيها هو وعمه حمزة عبيدة بن الحارث حيث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ودفع رسول الله ﷺ إليه رايته فيها، ويوم أحد قاتل قتالا شديدا وأصيب فيها ست عشرة ضربة، ويوم الخندق قتل فارس العرب عمرو بن عبد ود الذى كان يعد فيهم بألف فارس، وفتح الله عليه يوم خيبر وشهد المشاهد كلها إلا غزوة تبوك لأن رسول الله ﷺ استخلفه فيها على المدينة. ومن جم مناقبه ووافر مكارمه وفضائله أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال فيه : « لقد أعطى علىّ ثلاث خصال لأن تكون لى خصلة منها أحبُ إلى من أن أُعطى حُمر النعم، قال : تزوجه فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، وسكناه المسجد لا يحل لى فيه ما يحل له، والراية يوم خيبر.

وقال سعد ابن أبى وقاص: سمعت رسول الله ﷺ خلفه فى بعض مغازيه، فقال له علىّ : يارسول الله خلفتنى مع النساء والصبيان. فقال له رسول الله ﷺ : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى، وسمعته يقول يوم خيبر : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، قال : فتطاولنا لها فقال ﷺ : «ادعو لى عليّا !» فأتى به أرمد فبصق فى عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية :

﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) ﴾ [آل عمران]

دعا رسول الله ﷺ عليًا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال : «اللهم، هؤلاء أهلى».

وكان علىّ واسع العلم أعرف الناس بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : علىّ أقضانا. وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علىّ وقالت عنه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : أما إنه أعلم من بقى بالسنة فقد فتح الله عليه من الحكمة وآتاه متسعا من العلم ببركة دعاء رسول الله ﷺ له فعن على رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت : يارسول الله، تبعثنى إلى اليمن، ويسألونى عن القضاء ولا علم لى به ! قال : «ادن !» فدنوت، فضرب بيده على صدرى، ثم قال : « الله ثبت لسانه، واهد قلبه». فلا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت فى قضاء بين اثنين بعد وقد روى علىّ رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ خمسمائة وستة وثمانين حديثا منها أربعة وأربعون حديثا بالصحيحين.

قال ابن سعد : بويع على بالخلافة صبيحة مقتل عثمان بيعة العامة فى مسجد رسول الله ﷺ وبايع له من بينهم طلحة والزبير ثم بايع له أهل البصرة، ثم خرج الزبير وطلحة رضى الله عنهما إلى مكة وأدركتهم عائشة رضى الله عنها لما عادت من الحج فاتجهوا إلى البصرة يطلبون دم عثمان وبلغ ذلك علياً فخرج إلى العراق بأربعة عشر ألفا فلقى طلحة والزبير وعائشة وأنصارهم فى وقعة الجمل فى جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وقُتل طلحة والزبير رضى الله عنهما وبلغ عدد القتلى فى الفرقتين ثلاثة عشر ألفا وبعد المعركة أعاد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إلى المدينة عزيزة النفس،

وبعد هذه الوقعة بخمس عشرة ليلة خرج عليه معاوية ومن معه بالشام فسار إليه علىّ فالتقوا بصفين فى صفر سنة سبع وثلاثين وكان قد أشار رسول

الله ﷺ إلى ما سيقع من فتن شديدة كقطع الليل المظلم حيث اقتتل المسلمون فى الجمل وصفين مقتلة عظيمة كان علىّ إلى الحق أقرب فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة». وفى أثناء القتال بين على ومعاوية لجأ أصحاب معاوية للتحكيم فوافق علىّ وأوقف القتال فخرجت عليه فئة من أصحابه رفضوا التحكيم عرفوا بالخواج وكانوا نحو أربعة آلاف فقاتلهم علىّ بالنهروان سنة ثمان وثلاثين وقتل منهم عددا كبيراً وقد أخبر رسول الله ﷺ بذلك أيضا فقال : «تمرق مارقة عند فرقة المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق» فكانت الفرقة المارقة هم الخوارج الذين قال عنهم ﷺ : «يخرج قوم يقرءون القرآن بألسنتهم لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» وكانت الطائفة التى على الحق هم أنصار على.

فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله»، فقال أبو بكر: أنا هو يارسول الله ؟ قال : « لا » ، فقال عمر : أنا هو يارسول الله ؟ قال: «لا ، ولكن خاصف النعل - يعنى علياً» وبعدها قرر الخوارج أن يتخلصوا من على ومعاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهم .

فأرسلوا ثلاثة منهم إلى الصحابة الثلاثة فنجا عمرو وأصيب معاو ية وقتل على، طعنه عبدالرحمن بن ملجم عليه لعنة الله يوم الجمعة لثلاث عشرة أو سبع عشرة بقيت من رمضان سنة أربعين وهو خارج لصلاة الصبح ومات ليلة الأحد وكان عندها عمره ثمانى وخمسين وقيل ثلاثا وستين غسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وصلى عليه الحسن ودفن وقت السحر بدار الإمارة بالكوفة وقيل إنه حول من قبره إلى قبر آخر فعمى قبره حتى لا تنبشه الخوارج.

وكان رسول الله ﷺ قد أعلمه أنه سيموت شهيدا على يد واحد من أشقى الناس فعن عمار بن ياسر أن النبى ﷺ قال لعلى : أشقى الناس رجلان: أحيمر ثمود الذى عقر الناقة، والذى يضربك يا علىّ على هذه - يعنى قرنه - حتى تبتل منه هذه من الدم - يعنى لحيته» وقد استمرت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر وقال عنه أحمد : إن عليّا لم تزنه الخلافة ولكن علىّ زانها، وقال عنه : ماجاء لأحد من الفضائل ماجاء لعلى رضى الله عنه وأرضاه ورثاه أبو الأسود الدؤلى قائلا:

ألا ياعين ويحك أسعدينا ... ألا تبكى أمير المومنينا

ألا قل للخواج حيث كانوا ... فلا قرت عيون الحاسدينا :

أفى شهر الصيام فجعتمونا؟ ... بخير الناس طرا أجميعنا؟

قتلم خير من ركب المطايا ... وذللها، ومن ركب السفينا

ومن لبس النعال ومن حذاها ... ومن قرأ المثانى والمبينا

وكل مناقب الخيرات فيه ... وحب رسول رب العالمينا

لقد علمت قريش حيث كانت ... بأنك خيرهم حسبا ودينا

إذا استقبلت وجه أبى حسين ... رأيت البدر فوق الناظرينا

وكنا قبل مقتله بخير ... نرى مولى رسول الله فينا

يقيم الحق لا يرتاب فيه ... ويعدل فى العدى والأقربينا

وليس بكاتم علما لديه ... ولم يخلق من المتكبرينا

كأن الناس إذ فقدوا عليّا ... نعام حار فى بلد سنينا

وأفاض الله عليه بكرامات عديدة نذكر منها غزوة خيبر وما فتح الله عليه فيها فعن أبى إسحق عن عبد الله بن الحسن عن بعض أهله عن أبى رافع مولى

رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ برايته، فلما دنا من حصن خيبر خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول علىّ بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، ويقول أبو رافع رضى الله عنه : فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه.

ومن الكرامات التى منّ الله بها عليه أنه كان مجاب الدعوة فقد روى أبو مكين رضى الله عنه قائلا : مررت أنا وخالى أبو أمية على دار فى محل حى من مراد فقال : ترى هذه الدار؟ قلت : نعم. قال : فإن عليًا مر عليها وهم يبنونها فسقطت عليه قطعة فشجته فدعا الله عز وجل أن لا يكمل بناؤها.

قال : فما وضعت عليها لبنة فكنت تمر عليها لا تشبه الدور كما كان صادق الرؤيا وهى كرامة جليلة واضحة له فقد استيقظ علىّ سحر ليلة مقتله فقال لابنه الحسن : رأيت الليلة رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ما لقيت من أمتك من الأود واللدد ؟ - واشتكى له أمته ﷺ - فقال لى رسول الله ﷺ : «ادع الله عليهم»، فقلت : اللهم أبدلنى بهم خيرا لى منهم، وأبدلهم بى شرا لهم منى . فاستجاب الله له دعاءه ورؤياه فخرج بعدها ينادى إلى الصلاة على باب المسجد فاعترضه ابن ملجم فضربه بسيفه فأرداه قتيلا.

وكان علىّ رغم ما آتاه الله من كرامته وفضله وما أنعم عليه من صدق الولاية وشهادة رسول الله ﷺ له بالجنة إلا أنه كان زاهدا متواضعا لله تعالى فقد وصفه واصف فى عهد معاوية فأحسن وأجاد حيث قال : كان علىّ يستوحش من الدنيا وزهرتها يستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ماخشن وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه يعظم أهل الدين ويقرب المساكين وأشهد

أنى قد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغازت نجومه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين، ويقول : يادنيا غرى غيرى ! قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعمرك قصير وخطرك قليل، آه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق.

فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك. لقد كان فى آخر عهده قد فارقه أحبابه وحاربه أصدقاؤه وأعداؤه وقد انشقت الأمة ودب فيها الخلاف وهو يتمسك بالحق ويعض عليه بنواجذه فلا ينفلت عنه ولا يفوته إدراكه، يعيش عيشة الزاهدين ويحيا حياة الصابرين المتقين وصدق علىّ إذ يقول بلسان الزهد والخشوع :

حقيق بالتواضع من يموت	ويكفى المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم	وحرص ليس تدركه النعوت
صنيع مليكنا حسن جميل	وما أرزاقه عنا تفوت
فيا هذا سترحل عن قليل	إلى قوم كلامهم السكوت

سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه

هو سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، القرشى الزهرى. يجتمع نسبه مع النبى ﷺ فى جده كلاب القرشى، ويجتمع نسبه مع النبى ﷺ من جهة أمه حيث قال النبى ﷺ : هذا خالى فليرنى أمرؤ خاله» باعتبار أن سعدا كان زهريا وأم الرسول ﷺ زهرية ومن المعروف أن أهل الأم أخوال. أمه هى حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس. وكان سعد يلقب بفارس الإسلام وكان رجلا قصيرا دحداحا[1] غليظا ذا هامة، شثن الأصابع[2] جعد الشعر أشعر الجسد آدم أفطس يخضب بالسواد، وقد ذهب بصره فى آخر حياته.

أسلم سعد على يد أبى بكر الصديق قديما بعد ستة أو بعد أربعة وكان عمره سبع عشرة سنة وعن سعيد بن المسيب أن سعدا قال : ما أسلم أحد إلا فى اليوم الذى أسلمت فيه، ولقد مكثت سبعة أيام وإنى لثلث الإسلام وتروى ابنته عائشة عن كيفية دخوله الإسلام قائلة : إنه قال : رأيت فى المنام، قبل أن أسلم، كأنى فى ظلة لا أبصر شيئا إذ أضاء لى قمر فاتبعته، فكأنى أنظر إلى من سبقنى إلى ذلك القمر، فأنظر إلى زيد بن حارثة، وإلى على بن أبى طالب وإلى أبى بكر، وكأنى أسألهم : متى انتهيم إلى ها هنا؟ قالوا : الساعة، وكان قد بلغنى أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام مستخفيا، فلقيته فى شعب أجياد، وقد صلى العصر، فأسلمت فما تقدمنى أحد إلا هم .. وكانت هذه الرؤيا هى أول كرامة وهبها الله له ففتحت له بابا للهداية وما الهدى إلا من عند الله تعالى :

---

(١) قصير غليظ البطن.

(٢) غليظ خشن.

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء].

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى وهو من المهاجرين الأوائل. كما روى عن رسول الله ﷺ مائتين وسبعين حديثا منها ثمانية وثلاثون حديثا فى الصحيحين. شهد بدراً وكان ابن تسع عشرة وقيل ابن أربع وعشرين سنة وشهد أحدا وجمع له رسول الله ﷺ فيها أبويه فعن على بن أبى طالب رضي الله عنه أنه قال : ما جمع رسول الله ﷺ أباه وأمه لأحد إلا لسعد بن أبى وقاص، قال له يوم أحد : « ارم فداك أبى وأمى» وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله وهو أول من أراق دماً فى سبيل الله.

وقال الزهرى أنه رمى يوم أحد بألف سهم. كما شهد الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة أمر سعدا على جيوش المسلمين إلى العراق ففتح الله على يديه بلاد الفرس ثم تولى إمارة الكوفة وأقره عثمان عليها.

ومن الكرامات التى منَّ الله بها عليه أنه رأى الملائكة التى كانت تقاتل فى صفوف المسلمين يوم أحد فعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض لم أرهما قبل ولا بعد فمن الثابت فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن الملائكة كانت تتنزل على المؤمنين تساندهم وتقاتل معهم.

لقد نال سعد شرف ملازمة رسول الله ﷺ وصحبته وكان ممن يحرسه من الصحابة قبل أن ينزل الله تعالى على نبيه ﷺ :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة]

فكفهم رسول الله ﷺ عن حراسته لأن الله تعالى تولى ذلك عنهم. وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سهر رسول الله ﷺ مقدمة المدينة ليلة فقال : «ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة»، قالت : فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال من هذا ؟ قال : سعد بن أبى وقاص. فقال له : رسول الله ﷺ : ما جاء بك ؟ قال : وقع فى نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام. فقد وصفه رسول الله ﷺ بالصلاح وهذه أفضل كرامة تحسب له.

وكان سعد مستجاب الدعوة لا يدعو بدعاء إلا استجيب له وكان الناس يعلمون ذلك منه ويخافون دعوته وهذه الكرامة التى أكرمه الله بها تعتبر فى حقيقتها معجزة لنبينا محمد ﷺ لأن سعدا لم ينل هذه الكرامة إلا ببركة دعوة رسول الله ﷺ المستجابة لأن رسول الله ﷺ دعا الله قائلا : «اللهم استجب لسعد إذا دعاك» .

فقد روى عامر بن سعد رضى الله عنهما قال : أقبل سعد من أرض له فإذا الناس عكوف على رجل فاطلع فإذا هو يسب طلحة والزبير وعليًا رضى الله عنهم فنهاه فكأنما زاده إغراء، فقال سعد : ويلك ما تريد أن تسب أقواما هم خير منك لتنتهين أو لأدعون عليك ! فقال : هيه ! فكأنما تخوفنى نبيا من الأنبياء ! فانطلق فدخل دارا فتوضأ ودخل المسجد ثم قال : اللهم إن كان هذا قد سب أقواما قد سبق لهم منك خير أسخطك سبه إياهم فأرنى اليوم به آية تكون آية للمؤمنين، .

قال عامر : وتخرج بختية من دار بنى فلان نادة لايردها شيء حتى تنتهى إليه ويتفرق الناس عنه فتجعله بين قوائمهما فتطؤه حتى طفىء. والبختية الناقة.

قال عامر : فأنا رأيته يتبعه الناس ويقولون : استجاب الله لك أبا إسحق استجاب الله لك أبا إسحق. وروى جابر بن سلمة رضى الله عنه أن أهل الكوفة شكوا سعدا إلى عمر فى كل شيء حتى قالوا: لا يحسن يصلى، فقال سعد : أما إنى لا ألو أن أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ ، أطيل الأوليين وأحذف الأخرين.

فقال عمر رضى الله عنه : الظن بك يا أبا أسحاق، وكان قد بعث من يسأل عنه بمحال الكوفة، فجعلوا لا يسألون أهل مسجد إلا أثنوا عليه خيرا، حتى إذا مروا بمسجد لبنى عبس، فقام رجل منهم يقال له أبو سعدة أسامة بن قتادة فقال : إن سعدا كان لا يسير فى السرية ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل فى الرعية القضية، فبلغ سعدا فقال: اللهم إن كان عبدك هذا قام مقام رياء وسمعة.

- وفى رواية قال سعد : إن كان كاذبا - فأطل عمره وأدم فقره، وأعم بصره وعرضه للفتن، قال جابر: فأنا رأيته بعد ذلك شيخا كبيرا قد سقط حاجباه على عينيه يقف فى الطريق فيغمز للجوارى فيقال له ، فيقول : شيخ مفتون أصابته دعوة سعد .

وفى رواية أخرى عن مصعب أن سعداً خطبهم بالكوفة فخرج عليه رجل منهم فسبه، فقال سعد : اللهم إن كان كاذبا فأعم بصره وعجل فقره وأطل عمره وعرضه للفتن. قال : فما مات حتى عمى. قال : فكان يلتمس الجدران، وافتقر حتى سأل الناس، وأدرك فتنة المختار الكذاب، فقتل فيها وكان قبلها إذا قيل له : كيف أنت ؟ قال : أعمى فقير أدركتنى دعوة سعد.

وقد كان سعد من المحاربين المغاوير والقادة المحنكين ينصره دعاؤه الذى ناله بتقواه وولايته لله تعالى واتباعه سنة نبيه ﷺ فقد فتح الله على يديه ممالك كسرى فحقق ما وعد الله به رسول الله ﷺ من الفتوحات ونصرة دينه، وتحققت على يديه فيها كرامات عدة فقد أرسله عمر بن الخطاب لقتال الفرس فاجتمع تحت إمرته يوم القادسية ثلاثون ألفاً منهم ثلثمائة وبضعة عشر صحابيا وسبعون بدريا .

وكان عمر من ورائه يتابعه فبعث إليه كتابا أوصاه فيه ألا يهوله من الفرس عددهم وعدتهم وأمره أن يكاتبه ويخبره عن سير المعركة فكان عمر كما لو كان يراها بعينى رأسه ثم سار سعد فنزل القادسية فعبأ له رستم قائد الفرس مائة وعشرين ألفا يتقدمها ثلاثة وثلاثون فيلا - وكان سعد قد أصابه مرض أقعده فأدار المعركة عن كثب - وأمر على الجيش خالد بن عرفطة والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما .

وقاتل المسلمون قتالا عنيفا رغم أنهم عانوا أشد المعاناة من الفيلة لكن المسلمين الأبطال صمدوا وضربوا أروع الأمثال فى البطولة حتى استطاعوا قهر الأفيال والقضاء عليها وكان بين صفوف المسلمين عمرو بن معد يكرب أشجع العرب والقعقاع بن عمرو وضرار بن الخطاب الذين استبسلوا فى القتال حتى جاء نصر الله فانهزم الفرس وقُتل قائدهم رستم قال تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾ [آل عمران].

ثم زحف سعد والمسلمون وألقى فى قلوب الكافرين الرعب والخور ففروا بكامل جيوشهم إلى عاصمتهم المدائن وركبوا السفن وعبروا نهر دجلة وضموا السفن إليهم ، وقد زاد زيادة عظيمة فاسود ماؤه وعلا زبده وبلغ سعدا أن

كسرى عازم على أخذ الأموال والأمتعة والفرار بها فيجمع أمره من جديد ويعيد الكرة عليهم بعتاده وماله وجنده فوقف سعد رضى الله عنه على شاطئ دجلة يخطب فى المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليهم معه وهم يخلصون إليكم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه، وقد رأيت أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ألا إنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل - وهنا تظهر كرامة كبرى لسعد رضى الله عنه - فقد بعث سعد ستمائة فارس أمر عليهم عاصم بن عمرو فاقتحم ومعه ستون آخرون والمسلمون من ورائهم فلما رآهم الفرس يطفون على وجه الماء قالوا : دبوانا .. دبوانا وهى بالفارسية تعنى مجانين مجانين وقالوا : والله ما تقاتلون إنسا بل تقاتلون جنا، وفى رواية للأعمش عن بعض أصحابه قال : انتهيت إلى دجلة وهى مادة[1] والأعاجم خلفها .

فقال رجل من المسلمين باسم الله ثم أقحم فرسه فارتفع على الماء وقال من خلفه باسم الله باسم الله ثم اقتحموا فارتفعوا على الماء فلما نظر إليهم الأعاجم قالوا دبوان .. دبوان أى شياطين شياطين ثم ذهب الفرس على وجوهم. وكانت الكتيبة الأولى التى أرسلها سعد لعاصم بن عمرو واسمها كتيبة الأهوال تبعها القعقاع بن عمرو فى الكتيبة الخرساء هذا كله وسعد واقف على شاطئ دجلة.

ثم نزل سعد ببقية الجيش وأمر المسلمين أن يقولوا عند دخولهم الماء : نستعين بالله ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم اقتحم بفرسه دجلة واقتحم الناس لم يتخلف عنه أحد فساروا فيها كأنما يسيرون علي وجه الأرض حتى ملئوا ما بين الجانبين فلا يرى وجه الماء، ففر الفرس أمامهم فخلت المدائن ودخل سعد قصر كسرى وهو يردد قوله

(١) يعلوها المد .

تعالى :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) ﴾ [الدخان].

ثم تقدم إلى إيوان كسرى فصلى ثمانى ركعات، ثم تبع المسلمون الفرس فقاتلوهم فى جلولاء عام ستة عشر وقتلوا فيها مائة ألف ثم تلوها بفتح حلوان وغيرها من المدن وفرضوا عليهم الجزية بعد ما رفض أهلها دخول الإسلام، ثم عاد بعدها سعد إلى الكوفة فخطها وأنشأها وأقام بها وعلى الرغم من تلك الكرامات العظيمة والفضائل الكريمة لم يكن سعد إلا عبدا متواضعا لا يباهى بما منّ الله عليه ولا يستكبر بين الناس فعندما وقعت الفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان أقام بالمدينة واعتزل الناس وقد جاءه ابنه وهو معتزل فى إبله فقال له : الناس يتنازعون الإمارة وأنت هـهنا؟

فقال سعد : يا بنى، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يحب العبد الغنى الخفى التقى» وإنه كان حقا تقيا صالحا سئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقيل له : متواضع فى خبائه، عربى فى نمرته، أسد فى تاموره[1]، يعدل فى القضية، يقسم بالسوية، ويبعد فى السرية، ويعطف علينا عطف الأم البرة، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة.

توفى سعد سنة أربع أو خمس وخمسين وقيل ثمان وخمسين فى قصره بالعقيق على بعد عشرة أميال من المدينة وكان ذلك فى عهد معاوية رضى الله عنه فحمل على رقاب الرجال إلى المدينة وصلي عليه مروان بن الحكم وصلت عليه أمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ فى حجرهن ودفن بالبقيع وكان عمره عندها ثلاثا وثمانين سنة ويعد سعد آخر المبشرين العشرة موتا وآخر المهاجرين وفاة.

---

(١) عرينه.

عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه

هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بعد النضر بن كنانة، أمه هى الشفاء بنت عوف بن عبد الحارث بن زهرة أسلمت وهاجرت.

كان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو وقيل عبد الحارث وقيل عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن وكان يكنى أبا عبد الرحمن، وكان عبدالرحمن رجلا طوالا حسن الوجه رقيق البشرة أقنى فيه جنأ(١) أبيض مشرب بحمرة أعين أهدب(٢) أحدب الأسفار لا يغير شيبه، وكانت له جمة أسفل أذنيه، ضخم الكفين غليظ الأصابع، جرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة منها جرح فى رجله جعله يعرج كما سقطت فيها ثنيتاه فكان اهتم. ولد بعد عام الفيل بعشر سنين وهو أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الاسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر من العشرة المبشرين بالجنة، وهو من المهاجرين الأوائل، هاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى.

روى عن رسول الله ﷺ خمسة وستين حديثا منها سبعة أحاديث متفق عليها. ومن الفضائل العظيمة والمكارم الجليلة التى تحسب له أن الرسول ﷺ صلى خلفه فى غزوة تبوك حيث كان الرسول ﷺ قد ذهب يتوضأ فجاء وعبد الرحمن قد صلى بالناس ركعة فصلى خلفه وأتم الذى فاته، وقال ﷺ : « ما قبض نبى حتى يصلى خلف رجل صالح من أمته». إنه حقا رجل صالح وهل بعد شهادة النبى ﷺ شهادة وهل بعد تزكيته ﷺ تزكية. وهذه هى قصة

(١) جنأ : انحناء.

(٢) أهدب : واسع العينين.

هجرته التى تعد مثلا رائعا يحتذى فقد ضرب فيها مثالا رائعا فى صدق اليقين بربه تعالى والتوكل عليه والأخذ بالأسباب فقد هاجر معدما لا يكاد يجد قوته لا يتجاوز مامعه بضعة دراهم وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين واحد من الأنصار الذى عرض عليه أن يقاسمه فى أهله وماله وبيته وآثره على نفسه قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر].

فقد روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة آخى بينه وبين سعد بن الربيع، وقال له سعد : إن لى مالا فهو بينى وبينك شطران ولى امرأتان فانظر أيتهما أحببت حتى أُخالعها، فإذا حلت فتزوجها. فقال له عبد الرحمن لا حاجة لى فى أهلك ومالك، بارك الله لك فى أهلك ومالك، دلونى على السوق.

وفى رواية أخرى قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف : إنى أكثر الأنصار مالا، فأقسم مالى نصفين، ولى امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال : بارك الله لك فى أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن .. ورغم أنه كان قليل المال والسوق يحتكره تجار اليهود إلا أنه كان واثقا من وعد ربه ودعوة رسوله ﷺ فعن أنس ابن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : « بارك الله لك» فقال عبد الرحمن : فلقد رأيتنى لو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهبا أو فضة

وروى أنس رضى الله عنه أن عبد الرحمن ذهب إلى السوق، فكان يشترى السمينة، والأقيطة والإهاب فجمع فتزوج. فأتى النبى ﷺ فقال : بارك الله لك، أولم ولو بشاة» .

وتحققت له دعوة رسول الله ﷺ وتحققت كرامة الله تعالى له فصار ماله كثيراً يفوق الحصر ولما توفى خلف مالا عظيما فقد كان الذهب الذي خلفه يقطع بالفئوس حتى مجلت أيدى الرجال منه، وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع.

وقد قسم ميراثه على ستة عشر سهما وكان له أربع نسوة فبلغ نصيب كل امرأة له ثمانين ألف درهم، وأوصى بخمسين ألف دينار فى سبيل الله، وقال الزهرى إنه أوصى لكل رجل ممن بقي من البدريين بأربعمائة دينار وكان عددهم مائة.

ومما يبين عظمة هذه الكرامة التى نالها بصالح عمله وببركة دعوة النبى ﷺ أن هذا المال الذى خلفه لم يكن فى حياته بالكنز الذى يخزنه صاحبه أو يدخره وإنما كان عبد الرحمن سخيا منفقا يؤمن بقول الرسول ﷺ : « ما نقص مال من صدقة» فقد روى معمر عن الزهرى أنه تصدق على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف ثم تصدق بأربعين ألفا، ثم تصدق بأربعين ألفا أخرى، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله ثم حمل على خمسمائة راحلة فى سبيل الله .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بينما عائشة فى بيتها سمعت صوتا فى المدينة فقالت : ما هذا؟ قالوا : عير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شىء. قالت : وكانت سبعمائة بعير. قال أنس : فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «قد رأيت

عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا » فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال : إن استطعت لأدخلنها قائما. فجعلها فأقتابها وأحمالها فى سبيل الله عز وجل فقد كان عبد الرحمن بن عوف كثير الانفاق فى سبيل الله وقيل إنه أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبدا فقد علم أن المال هو من عند الله وإنما استخلفه عليه لينظر ما يفعل به فكان نعم الأمين ونعم المستخلف، وكان باراً وصولا. فقد كان يتولى أمر أمهات المؤمنين وكان يحج بهن.

توفى سنة إحدى وثلاثين وقيل اثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان ودفن بالبقيع وهو ابن اثنتين وسبعين وقيل خمس وسبعين.

سعيد بن زيد رضى الله عنه

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله ابن قُرط ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى، القرشى العدوى . أمه فاطمة بنت بعجة الخزاعية، وسعيد هو ابن عم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصهره وزوج أخته فاطمة بنت الخطاب كما تزوج عمر من أخته عائكة بنت زيد. وكان سعيد يكنى أبا الأعور وأبا ثور. أما عن صفاته الجسمية فكان رجلا آدم طوالا أشعر.

ومن مناقبه أنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة لكنه لا يُعد من الستة أصحاب الشورى الذين استخلفهم عمر حيث إن عمر لم يذكره فيهم لأنه ابن عمه فخاف أن يولى مُحَابة لهم. أسلم قديما قبل أن يدخل الرسول ﷺ دار الأرقم، وكان من المهاجرين الأولين آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أُبى بن كعب رضى الله عنه. لم يشهد بدراً لأنه كان يطلب عير قريش فقد بعثه رسول الله ﷺ هو وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما يستطلعان أخبار قريش فلم يرجعا إلا بعد المعركة لكنه يعد من البدريين فقد ضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره، وشهد سعيد ما بعدها من مشاهد وشهد اليرموك وحصار دمشق، لازم رسول الله ﷺ وروى عنه ثمانية وأربعين حديثا منها ثلاثة فى الصحيحين.

وكان سعيد بن زيد مجاب الدعوة وهى كرامة لا يهبها الله تعالى إلا لعبد تقى صالح فحدث أن شكته أروى بنت أويس إلى مروان بن الحكم أمير معاوية على المدينة وقالت : إنه ظلمنى أرضى، فأرسل إليه مروان، فقال سعيد : أترونى ظلمتها وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ظلم شبرا من أرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين؟» .

وفى رواية أخرى قال : اللهم إن كانت كاذبة فلا تمتها حتى تعمى بصرها وتجعل قبرها فى بئرها . فلم تمت حتى ذهب بصرها وجعلت تمشى فى دارها فوقعت فى بئرها فكانت قبرها– وفى رواية – يقول سعيد : فرأيتها عمياء تلتمس الجدران تقول : أصابتنى دعوة سعيد بن زيد .

فبينما هى تمشى فى الدار خرت فى بئر دارها فوقعت فيها وكانت قبرها فكان أهل المدينة يقولون : أعماك الله كما أعمى أروى فأصبحت أروى هذه مثالا وعبرة لكل من يفترى بغير الحق على أولياء الله تعالى من عباده رضى الله عنهم وأرضاهم.

توفى سعيد بن زيد سنة خمسين أو إحدى وخمسين وهو ابن بضع وسبعين سنة بالعقيق من نواحى المدينة فغسله سعد بن أبى وقاص وقيل غسله عبدالله ابن عمر وصلي عليه وحمل إلى المدينة فدفن بها .

أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه

هو عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة، يلتقى نسبه مع رسول الله ﷺ فى جده فهر بن مالك، وقد اشتهر بكنيته أبى عبيدة .

ولد بعد رسول الله ﷺ باثنتى عشرة سنة. أمه هى أم غنم بنت جابر أدركت الإسلام، أما أبوه فقد كان مشركا تصدى لأبى عبيدة يوم بدر يريد قتله فلما أكثر قصده قتله أبو عبيدة فكان الله ورسوله ﷺ أحب إليه من أبيه وأهله والناس جميعاً .

كان رجلا نحيفا معروق الوجه خفيف اللحية طوالا أجنأ أثرم الثنيتين[1] كان قد انتزع نصالا من وجنتى رسول الله ﷺ يوم أحد فسقطت ثنيتاه، كان يخضب بالحناء والكتم.

وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا، هاجر الهجرتين وشهد بدراً وعمره إحدى وأربعون سنة كما شهد أحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وقد صاحب النبى ﷺ الذى كان يؤثره ويحبه حبا جما لتقواه ونقاء سريرته وصلاح أمره، قال عنه رسول الله ﷺ : « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» وعن أبى مليكة عن عائشة رضى الله عنها سئلت من كان رسول الله ﷺ مستخلفا لو استخلفه، قالت : أبو بكر، فقيل لها ثم من بعد، قالت : عمر، ثم قيل لها من بعد عمر، قالت : أبو عبيدة ابن الجراح ثم انتهت إلى هذا .

ومات رسول الله ﷺ وهو راض عنه وهذا أبو بكر يوم السقيفة يقول : قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين : عمر بن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح

---

(١) مكسورهما .

وقال عمر بن الخطاب عنه لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته وما شاورت فإن سئلت عنه قلت : استخلفت أمين الله وأمين رسول الله ﷺ وكان أبو عبيدة مع صلاحه وتقواه ومحبة الله تعالى ورسوله ﷺ وخلفائه من بعده جم التواضع والخضوع لله تعالى فعن قتادة أنه سمع أبا عبيدة يقول : لوددت أنى كبش يذبحنى أهلى فيأكلون لحمى ويحسون مرقى.

وقد أيد الله أبا عبيدة بكرامة عظيمة كانت سببا فى إنقاذ جيش المسلمين من هلاك محقق كرامة من الله لهذا العبد الصالح التقى ورحمة بعباده المسلمين الذين خرجوا لإعلاء كلمة الله تعالى فعن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ وأمر علينا أبا عبيدة نتلقي عيرا لقريش، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة. قال : فقلت : كيف كنتم تصنعون بها؟ قال : نمصها كما يمص الصبى ثم نشرب عليها من الماء. فتكفينا يومنا إلى الليل.

وكنا نضرب بعصينا الخبط[1] ثم نبله بالماء فنأكله. قال جابر : وانطلقنا على ساحل البحر. فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب[2] الضخم. فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر فقال أبو عبيدة : ميتة، ثم قال : لا . بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفى سبيل الله. وقد اضطررتم فكلوا : قال جابر: فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلاثمائة حتى سمنا .

ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه القدر كالثور- أو قال : كقدر الثور - فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعا من أضلاعه، فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من

---

(١) أوراق الشجر .

(٢) مجتمع الرمل .

تحتها وتزودنا من لحمه وشائق[1] فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال ﷺ : «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟ش قال جابر : فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله.

لقد كانت هذه كرامة عظيمة أنجى الله تعالى بها جيش المسلمين مما نتعلم منها دروسا عديدة ونزداد يقينا بالله تعالى الذي يدافع عن أوليائه المتقين فعلاوة على خروج هذا الحوت الضخم من البحر ليكون للمسلمين طعاما ينقذهم من الموت جوعا ويقوتهم شهرا دون أن يتغير لحمه أو يفسد، فإن هذه الآية وسعتهم فى حالة الرخاء من بعد الضيق فعطاؤه لم يشبعهم ويسد رمقهم فحسب بل ويدخرون منه ويخزنون لقدمهم إلى المدينة لأن الله إذا أعطى فهو الجواد الكريم، وبارك الله هذه الكرامة بأن أكل منها رسول الله ﷺ، كما أن الحديث يعد من المصادر التشريعية فى السنة النبوية التى تحل طعام البحر وميتته وبذلك كانت هذه الكرامة سعة للمسلمين جميعا فسبحان الله الكريم الذي يعطى بلا حدود ويجود بأسمى آيات الكرم والجود.

توفى أبو عبيدة رضى الله عنه فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة وعمره ثمان وخمسون سنة ودفن ببيسان.

---

(١) لحم مجفف.

أبو محمد طلحة بن عبيد الله
ابن عثمان بن عمرو بن كعب

ابن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى.

أمه : الصعبة بنت الحضرى، أخت العلاء. أسلمت وأسلم طلحة قديما، وبعثه رسول الله ﷺ مع سعيد بن زيد قبل خروجه إلى بدر، يتجسسان خبر العير، فمرت بهما، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فخرج ورجعا يريدان المدينة، ولم يعلما بخروج النبى ﷺ فقدما فى اليوم الذى لاقى فيه رسول الله ﷺ المشركين، فخرجا يعترضان رسول الله فلقياه منصرفا من بدر فضرب لهما بسهامهما وأجرهما، فكانا كمن شهدها.

وشهد طلحة أحدا، وثبت يومئذ مع رسول الله ﷺ، ووقاه بيده فشلت إصبعاه، وجرح يومئذ أربعا وعشرين جراحة ويقال : كانت فيه خمس وسبعون، بين طعنة وضربة ورمى. وسماه رسول الله ﷺ يوم أحد «طلحة الخير»، ويوم غزوة ذات العشيرة «طلحة الفياض»، ويوم حنين : «طلحة الجود».

ذكر صفته :

كان آدم، كثير الشعر، ليس بالجعد القطط، لا بالسبط، حسن الوجه، دقيق العرنين لا يغير شعره، رضى الله عنه.

ذكر أولاده :

كان له من الولد : محمد، وهو السجاد، قتل معه يوم الجمل. وعمران أمهما حمنة بنت جحش، وموسى أمه خولة بنت القعقاع. ويعقوب قتل يوم الحرة. وإسماعيل وإسحاق أمهم أم أبان بنت عتبة بن ربيعة. وزكريا ويوسف

وعائشة أمهم أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق وعيسى ويحيى أمهما سعدى بنت عوم، وأم إسحاق : تزوجها الحسن بن على . والصعبة : أمهما أم ولد، ومريم : أمها أم ولد، وصالح : أمه الفريعة.

ذكر جملة من مناقبه - رضى الله عنه :

عن عبد الله بن الزبير، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يومئذ - يعنى يوم أحد - «أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع» يعنى حين برك له طلحة، فصعد رسول الله ﷺ على ظهره (رواه الإمام أحمد).

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان أبو بكر - رضى الله عنه - إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك كله يوم طلحة.

قال أبو بكر : كنت أول من جاء يوم أحد فقال لى رسول الله ﷺ ولأبى عبيدة ابن الجراح :« عليكما» يريد طلحة وقد نزف. فأصلحنا من شأن النبى، ثم أتينا طلحة فى بعض تلك الحفار فإذا به بضع وسبعون أو أقل أو أكثر، بين طعنة وضربة ورمية، وإذا قد قطعت إصبع، فأصلحنا من شأنه.

وعن قيس قال : رأيت طلحة يده شلاء وقى بها رسول الله ﷺ يوم أحد. انفرد بإخراجه البخارى.

وعن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة بن عبيد الله، قال : لما رجع رسول الله ﷺ من أحد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ هذه الآية :

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) ﴾ [الأحزاب]

. فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله، من هؤلاء ؟ فأقبلت وعلى ثوبان أخضران، فقال : أيها السائل هذا منهم.

وعن سعدى بنت عوف قالت : دخل على طلحة ورأيته مغموما فقلت : ما شأنك؟ فقال : المال الذي عندى قد كثر وقد كربنى. فقلت : وما عليك ؟ أقسمه فقسمه حتى ما بقى منه درهم.

قال طلحة بن يحيى : فسألت خازن طلحة : كم كان المال ؟ فقال : أربعمائة ألف.

وعن الحسن قال : باع طلحة أرضا له بسبعمائة ألف، فبات ذلك المال عنده ليلة، فبات أرقا من مخافة ذلك المال. فلما أصبح فرقه كله. (رواه الإمام أحمد).

وعنه أن طلحة بن عبيد الله باع أرضا له من عثمان بسبعمائة ألف فحملها إليه فلما جاء بها قال : إن رجلا تبيت هذه عنده فى بيته لا يدرى ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله. فبات ورسله تختلف بها فى سكك المدينة، حتى أسحر وما عنده منها درهم.

وعن سعدى بنت عوف، امرأة طلحة بن عبيد الله، قالت : لقد تصدق طلحة يوما بمائة ألف، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمعت له بين طرفى ثوبه.

وفاته - رضى الله عنه :

قتل يوم الجمل، وكان يوم الخميس لعشرة خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين. ويقال : سهما غربا أتاه فوقع فى حلقه، فقال : بسم الله، ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾.

ويقال : إن مروان بن الحكم قتله. ودفن بالبصرة وهو ابن ستين. ويقال : اثنتين وستين. ويقال : أربع وستين.

أبو عبد الله الزبير بن العوام

ابن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب، أمه : صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ . وأسلمت وأسلم الزبير قديما وهو ابن ثمانى سنين، وقيل : ابن ست عشرة سنة، فعذبه عمه بالدخان لكى يترك الإسلام فلم يفعل، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعا، ولم يتخلف عن غزاة غزاها رسول الله ﷺ . وهو أول من سل سيفا فى سبيل الله. وكان عليه يوم بدر ربطة صفراء معتجرا بها وكان على الميمنة، فنزلت الملائكة على سيماه وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد وبايعه على الموت.

صفته - ر ضى الله عنه :

كان أبيض، طويلا. ويقال : لم يكن بالطويل ولا بالقصير، إلى الخفة ما هو فى اللحم ويقال كان أسمر اللون، أشعر، خفيف العارضين.

أولاده - ر ضى الله عنه :

كان له من الولد : عبدالله ، وعروة، والمنذر، وعاصم، والمهاجر، وخديجة الكبرى، وأم الحسن، وعائشة : أمهم أسماء بنت أبى بكر.

وخالد، وعمر، وحبيبة، وسودة، وهند :" أمهم أم خالد وهى أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص. ومصعب، وحمزة، ورملة : أمهم الرباب بنت أنيف بن عبيد. وعبيدة، وجعفر : أمهما زينب. وزينب : أمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط. وخديجة الصغرى : أمها الحلال بنت قيس.

جملة من مناقبه - ر ضى الله عنه :

عن أبى الأسود قال : أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ثمانى سنين. وهاجر وهو ابن ثمانى عشرة سنة. وكان عم الزبير يعلق الزبير فى حصير

ويدخن عليه بالنار وهو يقول : ارجع إلى الكفر. فيقول الزبير : لا أكفر أبدا .

وعن أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد إسلام أبى بكر. كان رابعا أو خامسا . وعن عبد الله بن الزبير عن أبيه. قال: جمع لى رسول الله ﷺ أبويه يوم أحد.

وعن عبيد الله بن الزبير. قال : لما كان يوم الخندق كنت أنا وعمر بن أبى سلمة فى الأطم الذي فيه نساء رسول الله ﷺ . أطم حسان. وكان يرفعنى وأرفعه . فإذا رفعنى عرفت أبى حين يمر إلى بنى قريظة، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق، فقال : من يأتى بنى قريظة فيقاتلهم ؟ فقلت له : حين رجع يا أبة، إن كنت لأعرفك حين تمر ذاهبا إلي بنى قريظة. فقال : يا بنى، أما والله إن كان رسول الله ﷺ ليجمع لى أبويه جميعا يتفدانى بهما ويقول : فداك أبى وأمى. (أخرجاه فى الصحيحين).

وعن سعيد بن المسيب قال : أول من سل سيفا فى سبيل الله الزبير بن العوام. بينا هو بمكة إذ سمع نغمة، يعنى صوتا، أن النبى ﷺ قد قتل فخرج عريانا ما عليه شىء فى يده السيف صلتا فتلقاه النبى ﷺ كفة بكفة، فقال له : مالك يا زبير؟ قال : سمعت أنك قد قتلت. قال : فما كنت صانعا؟ قال : أردت والله أن استعرض أهل مكة. قال فدعا له النبى ﷺ .

وعن عمرو بن مصعب بن الزبير قال : قاتل الزبير مع رسول الله ﷺ وهو ابن اثنتى عشرة سنة، فكان يحمل على القوم.

وعن نهيك قال : كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم. يقول : يتصدق بها وفى رواية أخرى فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله ليس معه منه شىء.

وعن جويرية قالت : باع الزبير دارا له بستمائة ألف. قال : فقيل له : يا أبا عبد الله غبنت. قال : كلا والله لتعلمن أنى لم أغبن هى فى سبيل الله.

وعن على بن زيد قال : أخبرنى من رأى الزبير وإن فى صدره مثل العيون، من الطعن والرمى.

وعن قيس بن أبى حازم عن الزبير بن العوام قال : من استطاع منكم أن يكون له جنى من عمل صالح فليفعل.

مقتله - رضى الله عنه :

قتل الزبير يوم الجمل وهو ابن خمس وسبعين . ويقال : ستين . ويقال : بضع وخمسين. قتله ابن جرموز. عن ذر قال : استأذن ابن جرموز على على وأنا عنده، فقال على : بشر قاتل ابنو صفية بالنار. ثم قال على « سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لكل نبى حوارى وحواريى الزبير».

وعن عبد الله بن الزبير قال: جعل الزبير يوم الجمل يوصينى بدينه، ويقول: إن عجزت عن شىء منه فاستعن عليه بمولاى. قال : فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت : يا أبة من مولاك ؟ قال : الله . قال : ما وقعت فى كربة من دينه إلا قلت : يا مولى الزبير اقض عنه، فيقضيه. وإنما دينه الذى كان عليه : أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف فإنى أخشى عليه الضيعة. قال : فحسب ما عليه من الدين فوجدته ألفى ألف ومائتى ألف. فقتل ولم يدع دينارا ولا درهما إلا أرضين، فبعتهما (يعنى : وقضيت دينه) فقال بنو الزبير : اقسم بيننا ميراثنا. فقلت : والله لا أقسم بينكم حتى أنادى بالموسم أربع سنين : ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه.

فجعل كل سنة ينادى بالموسم فلما مضى أربع سنين قسم بينهم.

وكان للزبير أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف. فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف. انفرد بإخراج هذا الحديث البخارى.

المبشرون من غير العشرة

حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه

أمه هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة. يكنى أبا عمارة.

وكان له من الولد : يعلى، وعامر، وبنت - وهى التى اختصم بها زيد، وجعفر، وعلى. واسمها أمامة. انفرد الواقدى ، فقال : عمارة.

قال محمد بن كعب القرظى : قال أبو جهل فى رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك حمزة فدخل المسجد مغضبا، فضرب رأس أبى جهل بالقوس ضربة أوضحته. وأسلم حمزة فعز به رسول الله ﷺ والمسلمون، وذلك فى السنة السادسة من النبوة بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم. قال يزيد بن رومان: وأول لواء عقده رسول الله ﷺ حين قدم المدينة لحمزة.

وعن على رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر ودنا الناس منا إذا رجل منهم على جمل له أحمر، يسير فى القوم، فقال رسول الله ﷺ : يا على ناد لى حمزة، وكان أقربهم من المشركين، من صاحب الجمل الأحمر؟ وماذا يقول لهم؟ فجاء حمزة فقال : هو عتبة : وشيبة، والوليد فقالوا: من يبارز ؟ فخرج فتية من الأنصار فقال عتبة : لا نريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بنى عمنا، فقال رسول الله ﷺ : قم يا على، قم يا حمزة، قم يا عبيدة بن الحارث. (رواه الإمام أحمد).

مقتل حمزة - رضى الله عنه :

عن جعفر بن عمرو الضمرى قال : خرجت مع عبيد الله بن عدى بن الخيار إلى الشام. فلما قدمنا حمص قال لى عبيد الله : هل لك فى وحشى نسأله عن قتل حمزة؟ فقلت : نعم. وكان وحشى يسكن حمص. فجئنا حتى

وقفنا عليه، فسلمنا فرد السلام، وعبيد الله معتجر بعمامته ما يرى وحشى إلا عينيه ورجليه. فقال عبيدالله : يا وحشى أتعرفنى ؟ قال : فنظر إليه ثم قال : لا والله، إلا أنى أعل أن عدى بن الخيار تزوج امرأة فولدت له غلاما فاسترضعه، فحملت ذلك الغلام مع أمه فناولتها إياه، فكأنى نظرت إلى قدميه. فكشف عبيد الله وجهه ثم قال : ألا تخبرنا بقتل حمزة ؟ فقال : نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدى ببدر، فقال لى مولاى جبير بن مطعم : إن قتلت حمزة بعمى فأنت حر.

فلما خرج الناس عام «عينين» - قال : وعينين جبل أحد بينه وبينه واد - خرجت مع الناس إلى القتال فلما أن اصطفوا للقتال خرج سباع فقال : هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة فقال : يا سباع، يا ابن أم أنمار، يا بن مقطعة البظور أتحارب الله ورسوله ؟ ثم شد عليه فكان كأمس الذاهب.

وكمنت لحمزة تحت صخرة حتى مر على فلما أن دنا منى رميته بحربتى فأضعها فى ثنته حتى دخلت بين وركيه وكان ذلك آخر العهد به. فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة، حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف. فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلا فقالوا : إنه لا يهيج الرسل. فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ .

فلما رآنى قال : أنت وحشى ؟ قلت : نعم. قال : أنت قتلت حمزة ؟ قلت : قد كان من الأمر ما بلغك يا رسول الله. قال : أما تستطيع أن تغيب وجهك عنى؟ قال : فرجعت فلما توفى رسول الله ﷺ وخرج مسيلمة الكذاب قلت : لأخرجن إلى مسيلمة لعلى أقتله فأكافئ به حمزة. فرجعت مع الناس فكان من أمرهم ما كان.

قال : وإذا رجل قائم من ثلمة جدار كأنه جمل أورق، ثائر رأسه. قال : فأرميه بحربتى فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه. قال : ودب إليه

رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته. قال عبد الله بن الفضل : فأخبرنى سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول : فقالت جارية على ظهر بيت: وأمير المؤمنين قتله العبد الأسود (انفرد بإخراجه البخارى).

وعن الزبير أنه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى، حتى إذا كانت تشرف على القتلى، قال فكره رسول الله ﷺ أن تراهم فقال :المرأة المرأة. قال الزبير : فتوسمت أنها أمى صفية، فخرجت أسعى إليها فأدركتها قبل أن تنتهى إلى القتلى. قال : فلدمت فى صدرى، وكانت امرأة جلدة، قالت : إليك لا أرض لك. قال : فقلت إن رسول الله قد عزم عليك. قال : فوقفت وأخرجت ثوبين معها فقالت : هذان ثوبان جئت بهما لأخى حمزة فقد بلغنى مقتله، فكفنوه بهما. قال : فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فعل به كما فعل بحمزة. قال : فوجدنا غضاضة وحياء أن نكفن حمزة فى ثوبين والأنصارى لا كفن له.

فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصارى ثوب. فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر. فأقرعنا بينهما فكفنا كل واحد منهما فى الثوب الذى طار له (رواه الإمام أحمد) وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة حيث استشهد فنظر إلى شىء لم ينظر إليه شىء قط كان أوجع لقلبه منه. ونظر إليه قد مثل به فقال : رحمة الله عليك فإنك كنت – ما علمت – فعولا للخيرات وصولا للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أدعك حتى تحشر من أفواه شتى، أما والله مع ذلك لأمثلن بسبعين منهم مكانك. فنزل جبريل – والنبى ﷺ واقف بعد – بخواتم النحل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي

ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

فصبر النبى ﷺ وأمسك عما أراد . وعن أنس قال : كان النبى ﷺ إذا صلى على جنازة كبر عليها أربعا وإنه كبر على حمزة سبعين تكبيرة. وعن جابر قال : لما أراد معاوية أن يجرى عينه التى بأحد كتبوا إليه : إنا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب انبشوهم. قال : فرأيتهم يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاة طرف رجل حمزة فانبعث دما . وعنه قال : كتب معاوية إلى عامله بالمدينة أن يجرى عينا إلى أحد فكتب إليه عامله : إنها لا تجرى إلا على قبور الشهداء. قال : فكتب إليه أن أنفذها . قال : فسمعت جابر بن عبدالله يقول : فرأيتهم يخرجون على رقاب الرجال، كأنهم رجال نُوَّم حتى أصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دما (والمسحاة : الفأس)

أم حرام بنت ملحان

أخت أم سليم. أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ . وكان يقيل فى بيتها .

عن أنس بن مالك، عن أم حرام قالت : بينا رسول الله ﷺ قائل فى بيتى إذ استيقظ وهو يضحك، فقلت : بأبى أنت وأمى ما يضحكك ؟ قال : عرض على ناس من أمتى يركبون ظهر هذا البحر كالملوك على الأسرة.، فقلت : ادع الله أن يجعلنى منهم قال : اللهم اجعلها منهم. ثم نام أيضا فاستيقظ وهو يضحك. فقلت : بأبى أنت وأمى ما يضحكك ؟ قال عرض علىّ ناس من أمتى يركبون ظهر هذا البحر كالملوك على الأسرة فقلت : ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال : أنت من الأولين. فغزت مع عبادة بن الصامت وكان زوجها فوقصتها بغلة لها شهباء فوقعت فماتت (أخرجاه فى الصحيحين).

وعن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عمير بن الأسود العنسى أنه حدثه أنه أتى عبادة بن الصامت وهو بساحل حمص فى بناء له ومعه امرأته أم حرام. قال عمير فحدثتنا أم حرام أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا. قالت أم حرام : يا رسول الله أنا منهم؟ قال : أنت منهم. وأوحيت أى وجبت لها الجنة .

قال هشام : رأيت قبرها ووقفت عليه بالساحل بقاقيس. وعن هشام بن الغاز قال : قبر أم حرام بنت ملحان بقبرس وهم يقولون هذا قبر المرأة الصالحة - رحمها الله -.

عمار بن ياسر بن عمار بن مالك

وأمه سمية. أسلم قديما وكان من المستضعفين الذين يعذبون بمكة ليرجعوا عن دينهم. أحرقه المشركون بالنار وشهد بدرا ولم يشهدها ابن مؤمنين غيره. وشهد أحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . وسماه الطيب المطيب.

عن عمرو بن ميمون قال : أحرق المشركون عمار بن ياسر بالنار، وكان رسول الله ﷺ يمر به ويمر يده على رأسه ويقول : يا نار كونى بردا وسلاما على عمار كما كنت على إبراهيم - عليه السلام -.

وعن عثمان بن عفان قال : أقبلت أنا ورسول الله ﷺ آخذ بيدى نتماشى فى البطحاء حتى أتينا على أبى عمار وعمار وأمه وهم يعذبون. فقال ياسر : الدهر هكذا. فقال له النبى ﷺ : اصبر، اللهم اغفر لآل ياسر. قال : وقد فعلت.

عن أبى عبيدة بن محمد بن عمار قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب رسول الله ﷺ وذكر آلهتهم بخير. فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك ؟ قال شر يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير. فقال رسول الله ﷺ : فكيف تجد قلبك ؟ قال أجد قلبى مطمئنا بالإيمان. قال : فإن عادوا فعد.

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه.

وعن على قال : جاء عماريستأذن على النبى ﷺ فقال : ائذنوا له، مرحبا بالطيب المطيب (رواه أحمد). وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : إن الجنة تشتاق إلى ثلاثة : على ، وعمار، وسلمان، (رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح).

وعن خالد بن سمير قال : كان عمار بن ياسر طويل الصمت، طويل الحزن والكآبة، وكان عامة كلامه عائذا بالله من فتنة (رواه أحمد).

وعن عامر قال : سئل عمار عن مسألة فقال : هل كان هذا بعد ؟ قالوا : لا. قال : فدعونا حتى يكون، فإذا كان تجشمناها لكم. وعن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه، عن عمار بن ياسر أنه قال : وهو يسير إلى صفين إلى جنب الفرات : اللهم لو أعلم أنه أرضى لك عنى أن أرمى بنفسى من هذا الجبل فأتردى فأسقط فعلت، ولو أعلم أنه أرضى لك عنى أن ألقى نفسى فى الماء فأغرق نفسى فعلت، وإنى لا أقاتل إلا أريد وجهك وأنا أرجو أن لا تخيبنى وأنا أريد وجهك.

وعن عبد الله بن سلمة قال : رأيت عمار بن ياسر يوم صفين شيخا آدم فى يده الحربة وإنها لترعد، فنظر إلى عمرو بن العاص معه الراية فقال : إن هذه الراية قد قاتبتها مع رسول الله ﷺ ثلاث مرات، وهذه الرابعة، والله لو ضربونا حتى يبلغونا شعاف هجر لعرفت أن صاحبنا على الحق وأنهم على الضلالة.

وعن أبى سنان الدؤلى صاحب رسول الله ﷺ قال : رأيت عمار بن ياسر دعا بشراب فأتى بقدح من لبن فشرب منه ثم قال : صدق الله ورسوله،

اليوم ألقى الأحبة محمدا وحزبه، إن رسول الله ﷺ قال : إنو آخر شىء يرويه من الدنيا صبحة لبن. ثم قال : والله لو هزمونا حتى يبلغونا شعاف هجر لعلمنا أنا على حق وأنهم على باطل.

قال أهل السير : قتل عمار بصفين مع على بن أبى طالب - رضى الله عنهم - قتله أبو الغادية، ودفن هناك فى سنة سبع وثلاثين وهو ابن ثلاث، وقيل : أربع وتسعين سنة.

عبد الله عمرو بن حرام بن ثعلبة أبو جابر

أحد النقباء. شهد العقبة مع السبعين، وبدرا، واحدا، وقتل يومئذ.

عن جابر بن عبد الله، قال : لما قتل أبى يوم أحد جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونى والنبى ﷺ لا ينهانى، قال : وجعلت عمتى فاطمة بنت عمرو تبكى عليه، فقال النبى ﷺ : ابكيه أولا تبكيه مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه.

وعن جابر قال : قتل أبى يوم أحد فبلغنى ذلك فأقبلت فإذا هو بين يدى النبى ﷺ مسجى. فتناولت الثوب عن وجهه وأصحاب رسول الله ﷺ ينهونى، كراهية أن أرى ما به من المثلة ورسول الله ﷺ لا ينهانى. فلما رفع قال رسول الله ﷺ : مازالت الملائكة حافة بأجنحتها حتى رفع.

ثم لقينى بعد أيام فقال : أى بنى ألا أبشرك ؟ إن الله تعالى أحيا أباك فقال : تمنه. فقال : يارب، أتمنى يارب أن تعيد روحى وتردنى إلى الدنيا حتى أقتل مرة أخرى. قال : إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون.

وعن جابر قال : صرخ بنا إلى قتلانا يوم أحد حين أجرى معاوية العين، فأخرجناهم بعد أربعين سنة لينة أجسادهم تنثنى أطرافهم.

عمير بن الحمام

قتل ببدر. قال عاصم بن عمر: هو أول قتيل قتل من الأنصار فى الإسلام.

عن أنس ، قال : انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين فى بدر. فدنا المشركون فقال النبى ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض قال : نعم . قال : بخ بخ. قال رسول الله ﷺ : ما حملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال : فإنك من أهلها. قال : فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة. قال : فرمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل رضى الله عنه.

ياسر بن عامر بن مالك (أبو عمار)

قدم مكة فحالف أبا حذيفة فزوجه أبو حذيفة أمة له يقال لها سمية بنت خياط فولدت له عماراً، رحمهم الله. ثم جاء بالإسلام فأسلم ياسر وعمار، فلما أسلم ياسر أخذته بنو مخزوم فجعلوا يعذبونه، ليرجع عن دينه. قال عثمان بن عفان، أقبلت أنا ورسول الله ﷺ وهو آخذ بيدى حتى أتينا على أبى عمار وعمار وأمه وهم يعذبون . فقال ياسر : الدهر هكذا. فقال النبى ﷺ : اصبر اللهم اغفر لآل ياسر قال : وقد فعلت رضى الله عنه .

مبشرون آخرون

السيدة مريم بنت عمران - ر ضى الله عنها -

هى السيدة البتول مريم بنت عمران بن ياشم بن ميشا بن حزقيا بن إبراهيم ابن غرايا بن ناوس ويصل نسبها إلى سيدنا داود عليه السلام.

أما أمها فهى : حنة بنت فاقود وكانت صالحة تقية.

قصة ميلاد مريم :

كانت أم مريم عاقرا لا تلد فروى أنها رأت طائرا ذات يوم يحوم حوله فرخه فتمنت الولد واشتهت أن يرزقها الله الولد ودعت الله بخشوع أن يحقق لها رغبتها فاستجاب الله دعاءها وحقق رغبتها وحملت وعند ذلك وهبت ونذرت ما فى بطنها خالصا لعبادة الله والقيام بخدمة بيت المقدس ويحكى القرآن قصتها

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) ﴾ [آل عمران]

وقبل الله نذرها وأنبت ابنتها مريم نباتا حسنا وجنبها الشيطان استجابة لدعائها:

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) ﴾ [آل عمران]

ولذلك يقول الرسول ﷺ «ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا من مسه إياه إلا مريم وابنها» وشاءت عناية الله أن يتكفل

رعاية مريم زوج أختها وذلك لأن الرسول ﷺ فى رحلة المعراج قابل عيسى ويحيى ووصفهما بأنهما ابنا الخالة، وقيل كان زكريا زوج خالة مريم والله أعلم.

وهكذا قامت مريم بخدمة بيت المقدس وتنظيفه وتفرغت للعبادة وانقطعت إليها وأنعم الله عليها بكرامات لا تحدث إلا للأولياء والمصطفين من عباد الله الأخيار ومن هذه المنح الإلهية لمريم أنها كانت تجد بجوارها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء وسبحان الرزاق وصدق تعالى :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾[آل عمران]

وشاءت عناية الله أن تحمل السيدة مريم بدون زواج ولا جماع وتلك إرادة الله ومعجزة خارقة للعادة وآية ظاهرة على قدرة الله على كل شىء فهو يقول للشىء كون فيكون وولدت سيدنا عيسى عليه السلام.

ومريم - عليها السلام ورضى الله عنها - هى المرأة الوحيدة التى ذكرت باسمها فى القرآن الكريم صراحة، وذلك ليبطل ادعاء من يزعم أن عيسى ابن الله وأن مريم زوجة الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وكان أيضا من عادة الملوك والسلاطين قديما أن لا يرى أحدا من الناس زوجته ولا يعرف اسمها ولا يذكرها زوجها الملك والسلطان باسمها أمام الناس فكأن الله تعالى - ولله المثل الأعلى يذكر اسم مريم فى القرآن يبين للناس جميعا أنها عبدة من عباده وليست بزوجته فهو سبحانه منزه عن النقص والولد والمعين.

فضائل مريم :

للسيدة مريم - عليها السلام ورضى الله عنها - فضائل كثيرة منها أنها أول سيدات نساء العالمين وأول سيدات أهل الجنة، وهنا يقول الرسول ﷺ «سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم امرأة فرعون آسية» وفى رواية أخرى فيما معناه : «سيدات نساء العالمين أربع : مريم وفاطمة وخديجة وآسية بنت مزاحم».

ويقول ﷺ : « لقد فضلت خديجة على نساء أمتى كما فضلت مريم على نساء العالمين».

ويقول أيضا ﷺ : « أفضل نساء العالمين - خير نساء العالمين - خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

هذا والقول الراجح فى السيدة مريم أنها ولية تقية عابدة زاهدة من العابدات الصالحات وليست نبيه لأن النبوة خاصة بالرجال.

امرأة فرعون آسية بنت مزاحم

هى السيدة آسية بنت مزاحم زوجة فرعون والراجح أنها ابنة فرعون وقيل من بنى إسرائيل وقيل غير ذلك والعلم عند الله.

فضائلها :

لها فضائل كثيرة وأعظمها أنها حينما سمعت بدعوة موسى بنى إسرائيل إلى عبادة الله الواحد الأحد الخالق المستحق للعبادة آمنت بالله وآمنت بموسى وبدعوته وقالت مع السحرة آمنت برب موسى وهارون، وضربت أروع الأمثلة فى الإيمان الصادق المتغلغل فى القلب والعقيدة الصحيحة الثابتة.

سبحان الله امرأة تتحدى فرعون بقوته وجبروته وتصرخ فى وجهه آمنت بالله ربى وربك، لم تكتف بأن تؤمن سرا ولكن حلاوة الإيمان وصمودها وثباتها جعلها تعلن إيمانها بصوت عالٍ مدو وتتحدى فرعون مصر وكما جاء فى الأثر أمر فرعون أن تشد يديها ورجليها فى أربعة أوتاد فمن الله عليها بكرامات منها أن جنود فرعون إذا تفرقوا عنها أظلتها ملائكة تحفظها فكانت تدعو الله قائلة :

﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم]

وكان فرعون يتمنى أن ترجع عن إيمانها وقال لجنوده إن رجعت عن قولها فهى امرأتى، وإن مضت على قولها فألقوها على الصخرة، وذات يوم مر عليها فرعون وهى موثقة اليدين والرجلين وتدعو الله :

﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم]

فكشف لها عن بيتها فى الجنة وأراها الله سبحانه بيتها فى الجنة ففرحت وضحكت وتعجب فرعون من ضحكها وظن أنها جنت ،وقبض الله روحها راضية مرضية، وقيل ألقى فرعون عليها صخرة عظيمة فقبض الله روحها قبل أن تقع الصخرة على جسدها .

ويكفيها شرفا وفخرا وعزا وبهاء وسموا أن يصفها الله بالإيمان ويذكرها فى القرآن الكريم وجعلها مثلا ونموذجا لثبات الإيمان الذى لا يزعزعه شىء فقال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحرم]

من فضائلها أيضا شهادة النبى ﷺ لها بالمكانة العظيمة فقال : «كمل

من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد».

رحمها الله فضلت الموت مؤمنة بالله على الحياة منعمة فى قصر فرعون.

السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها -

هى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصى بن كلاب، أما أمها فهى فاطمة بنت زائدة العامرية كنيتها أم القاسم - رضى الله عنها.

مناقبها:

هى أول من آمن من النساء بالنبى ﷺ وصدقت نبوته وأعانته وشجعته على المسير فى دعوته تؤازره وتساعده بكل ما تملك، وقد ضربت أروع الأمثلة للزوجة الصالحة التى تعين زوجها على مصائب الحياة، وهى مثال ونموذج للزوجة التقية الصالحة التى تعرف حق زوجها فرضى الله عنها، وعلى نسائنا أن يتأسين بها حتى يفزن برضى الله والجنة.

وكانت لها منزلة خاصة عند النبى ﷺ وكان بعد وفاتها تود أقاربها ورحمها وصديقاتها وقال عنها ﷺ : «لقد آمنت بى حين كفر الناس وواستنى بمالها حين تخلى الناس ورزقنى الله منها الولد».

وحبا لها لم يتزوج النبى ﷺ عليها وهى أول زوجة له ورزقه الله منها الولد ثلاثة بنين : القاسم والطيب والطاهر وماتوا قبل الفطام وأربع بنات رقية وزينت وأم كلثوم وفاطمة وتزوجن وأنجبن ومع أن النبى ﷺ كان سنه خمس وعشرون سنة حين تزوجها وكان عمرها أربعين عاما ولم تكن بكرا وإنما كانت متزوجة قبله برجلين مع ذلك لم يشعر معها النبى ﷺ أى ضيق أو حرج أو

فارق فقامت بحقوقه على أكمل وجه وكانت تجعل البيت له سكينة وراحة ليستجم ويستريح مما يلاقيه من عنت قريش وكانت تهون عليه وتخفف عنه.

بشارتها بالجنة :

قال عنها ﷺ : « لقد فضلت خديجة على نساء أمتى كما فضلت مريم على نساء العالمين».

قال ﷺ أيضا : « أفضل نساء العالمين خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون».

وذات يوم نزل أمين الوحى جبريل عليه السلام على الأمين محمد ﷺ فقال له : يارسول الله هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربك عز وجل ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

وتقول عنها السيدة عائشة رضى الله عنها تزوجنى بعدها بثلاث سنين وأمره ربه عز وجل أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب.

قال العلماء معنى قصب أى لؤلؤ مجوف، ومعنى لا صخب فيه ولا نصب: أى لا تعب فيه ولا ضوضاء ولا إزعاج.

فكما أنها لم تتعب رسول الله ﷺ وآنسته ولم تجعل البيت مصدرا للنصب والصياح والإزعاج وإنما جعلته سكينة فجزاها الله من جنس عملها فبشرها ببيت فى الجنة وليس هذا فحسب وإنما بيت كله هدوء وسكينة لأنها جعلت بيتها فى الدنيا هدوءا وسكينة لرسول الله فكان الجزاء من جنس العمل جزاءوفاقاً.

وفاتها - رضى الله عنها - :

توفيت السيدة خديجة – رضى الله عنها – بعد رحلة كفاح ونضال مع رسول الله ﷺ من أروع النماذج الإنسانية وأعظم المواقف قضت خلالها خمسا وعشرين سنة فى خدمة النبى زوجة ومجاهدة ومساعدة بالمال والنفس والنفيس، وفاضت روحها الطاهرة فى شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ودفنت بالحجون بمكة فرضى الله عنها.

السيدة فاطمة الزهراء - رضى الله عنها -

أما اسمها فهى السيدة فاطمة الزهراء وأما عن نسبها فهو خير الأنساب وأفضل الأحساب فهى بنت أشرف الخلق جميعا وأعظم الأنبياء سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله ﷺ ، وأمها هى خالدة الذكر وسابقة الذكر السيدة خديجة بنت خويلد – رضى الله عنها–.

مناقبها - رضى الله عنها - :

ولدت رضى الله عنها بعد البعثة النبوية المطهرة أى ولدت فى الإسلام ورضعت لبان العفاف والإيمان والخلق القويم منذ الطفولة.

كانت أحب بنات الرسول ﷺ إلى نفسه لدرجة أنها كانت إذا دخلت عليه يقوم لها حبا وشفقة ويجلسها بجواره وكانت تشبه النبى ﷺ فى سمته ومشيته.

تزوجها الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بمهر وجهاز قليل متواضع فبارك الله زواجهما وكان ذلك فى العام الثانى للهجرة، بعد غزوة بدر، وأثمر الزواج المبارك عن ثمرات يانعة وزهرات عاطرة عطرت الكون كله بشذاها وسيرتها الحسنة، وهذه الفروع للشجرة المحمدية تتمثل فى الإمام الحسن

والإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة أم كلثوم، وهكذا شاءت عناية الله تعالى أن تكون السيدة الزهراء زهرة بيت النبوة ووعاء للسلالة المحمدية وأصلا للدوحة النبوية والشجرة المحمدية وأساسا لأهل بيت النبى ﷺ .

لم يتزوج سيدنا على عليها أثناء حياتها ولكن بعد وفاتها تزوج للظروف المعيشية.

كانت السيدة فاطمة فى بيتها كأمها رضى الله عنها مثالا للزوجة الصابرة التقية الصالحة تخدم زوجها وتوفر له الجو الإيمانى الخالى من النكد والمشاكل والجو الهادئ المليء بالسكينة وكانت تطحن الشعير وتخبزه ولم تتكبر أو تتعالى أنها بنت رسول الله ﷺ وما شكا منها سيدنا على وذلك لأنها تعرف حق زوجها وبيتها فلم تقصر فى أى حق منهما.

بشارتها بالجنة :

استحقت السيدة الزهراء رضى الله عنها أن يبشرها الرسول ﷺ بالجنة لما كانت عليه فى حياتها التى تعتبر مثالا رائعا للمرأة المسلمة فى الصبر مع الزوج وتحمل مشاق الحياة والدعوة فى سبيل الله.

وكيف لا وهى بنت رسول الله وتربت فى بيت النبوة ولذلك كانت بشارة الله لها بالجنة تشريفا عظيما ونزل على الرسول ﷺ ملك أول مرة ينزل عليه مهمته أن يزف البشرى لرسوله ﷺ ويبشره بأن فاطمة من أهل الجنة وليس هذا فقط وإنما بشره بأنها سيدة نساء أهل الجنة أو من سيدات نساء أهل الجنة وهذان بشارتان عظيمتان وهذا دليل سمو منزلتها عند الله تعالى.

وفى ذلك يقول ﷺ : «هذا ملك لم ينزل من قبل هذه الليلة، استأذن ربه أن يسلم علىّ ويبشرنى بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة».

وتروى السيدة عائشة رضى الله عنها – أن فاطمة أقبلت تمشى ذات يوم فقال لها النبى ﷺ : «مرحبا بابنتى ثم أجلسها عن يمينه أو شماله ثم أسر إليها حديثا فبكت فقالت لها – أى عائشة – لم تبكين ؟ ثم أسر إليها حديثا فضحكت فقلت: ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن فسألتها عما قال، فقالت : ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ حتى قُبض فسألتها –أى بعد وفاة الرسول– فقالت أسر إلىّ أن جبريل كان يعارضنى بالقرآن كل سنة مرة أى يراجعه معى وإنه عارضنى العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلى – وفى رواية حضور أجلى – وإنك أول أهل بيتى لحاقا بى فبكيت – أى بكت لفراق النبى ﷺ – فقال: أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين، فضحكت– أى للبشرى بالجنة.

وفاتها - رضى الله عنها - :

توفيت السيدة الزهراء بعد وفاة رسول الله ﷺ بستة أشهر عاشتها كلها حزنا وبكاء على فراق أبيها لدرجة أنه قيل إنها ما ضحكت بعد وفاة الرسول ﷺ حتى ماتت، وعدها المؤرخون من البكائين لحزنها الدائم على رسول الله ﷺ ، ودفنت بالقيع وكانت وفاتها فى العام الحادى عشر من الهجرة وعمرها أربع وعشرون عاما– وتولت ابنتها السيدة زينب – رضى الله عنها – رعاية البيت بعدها ورعاية شئون أبيها وأخوتها فرضى الله عنهم أجمعين.

الإمامان الجليلان الحسن والحسين

- رضى الله عنهما -

١- الإمام الحسن بن على بن أبى طالب بن هاشم بن عبد مناف، وكنيته أبو محمد، أما أمه فهى عالية القدر سالفة الذكر السيدة فاطمة الزهراء -رضى الله عنها - بنت رسول الله ﷺ .

ولد سيدنا الحسن فى شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة وعق عنه الرسول ﷺ بكبش.

قال عنه جده المصطفى ﷺ : « اللهم إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه » وقال أيضا : « إن ابنى هذا سيدا ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين » وكان هذا من أعلام النبوة التى أخبر بها الرسول قبل وقوعها وقد حدث ذلك فعلا، بعد موت سيدنا على بايع أهل العراق الحسن خليفة المسلمين وظلت خلافته أكثر من ستة أشهر على الراجح، ولما أحس سيدنا الحسن بنشوب فتنة بين المسلمين فى الحجاز ودمشق والشام والعراق مع معاوية بن أبى سفيان وجنده إذا به يتنازل عن الحكم لمعاوية ويصالحه على خلافة المسلمين حقنا للدماء وبترا للفتنة، وكان هذا من زهده وورعه وبذلك تحققت بشارة جده ﷺ فيه وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين.

وفاته - رضى الله عنه -

تذكر الروايات أن سيدنا الحسن توفى بالمدينة مسموما وقيل كان الأمويون السبب فى وفاته مسموما والعلم عند الله تعالى، وكانت وفاته سنة خمسين للهجرة وعمره سبعة وأربعون عاما ودفن بجوار أمه الزهراء بالبقيع رضوان الله عليهم جميعا.

٢- أما سيدنا الحسين فهو الأخ الأصغر لسيدنا الحسن وكنيته أبو عبد الله، وولد بعد أخيه الحسن بعام وذلك فى العام الرابع للهجرة فى شهر شعبان.

كان جده المصطفى ﷺ يحبه مثل أخيه ولما ولد عق عنه ﷺ بكبش، وقال عنه ﷺ : « حسين منى وأنا منه أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط» وقال عنه سيدنا جابر بن عبد الله الصحابى الجليل : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن على فإنى سمعت رسول الله ﷺ بقوله : أى يقول ذلك.

وفاته - رضى الله عنه - :

شاءت إرادة الله أن يموت الإمام الحسين شهيدا يوم عاشوراء فى موقعة كربلاء فى خلافة يزيد بن معاوية سنة إحدى وستين من الهجرة واستشهد معه اثنان وسبعون من أهل بيت النبى ﷺ ومن أنصار الحسين.

وجاء فى الحديث أن ملكا أعلم رسول الله ﷺ بما سيحدث للحسين وهذا من أعلام النبوة فأخبر به الصادق المصدوق ﷺ قبل حدوثه بخمسين سنةتقريبا.

يقول ﷺ : « دخل علىّ البيت ملك لم يدخل علىّ قبلها، فقال لى : إن ابنك هذا حسينا مقتول وإن شئت أتيتك تربة الأرض التى يقتل بها، قال فأخرج تربة حمراء ».

وهكذا مات سيدنا الحسين شهيدا ولم ينج من ذريته وأبنائه إلا على زين العابدين وكان طفلا صغيرا مريضا فلم يقتل فى المعركة وبعد المعركة أخذته عمته السيدة زينب ومنعت ابن زياد من قتله واحتضنته وقالت له اقتلنى معه فألقى الله الرعب فى قلبه، وتركهما وبذلك كان على زين العابدين هذا هو الذى تفرعت منه السلالة الحسينية وله أولاد كثير منهم الحسن والحسين ومحمد الباقر وزيد وعمر وعبد الله وعلى ومحمد الأوسط.

مناقب الحسن والحسين :

للإمامين الجليلين الحسن والحسين فضائل كثيرة أكثر من أن تحصى يكفى أنهما ابنا بنت رسول الله ﷺ ، وتربا فى بيت النبوة وسماهما رسول الله ﷺ ورقاهما عند ولادتهما وعق عنهما وكان أحب شىء إلى قلبه فورد أنه ﷺ كان يشم الحسن والحسين ويضمهما إليه ويقول : «هما ريحانتاى من الدنيا» وقال ﷺ :«من أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى».

وكان يتمتعان بصفة الحلم والوقار والكسينة والجود والزهد والعبادة الصافية والخاشعة لله رب العالمين.

بشارتهما بالجنة :

بشرهما رسول الله ﷺ ببشارتين عظيمتين إحداهما تكفى فما بالكم بالثانية وهى أعظم من الأولى، بشرهما بأنهما من أهل الجنة، وأنهما سيدا شباب أهل الجنة، وقال أيضا : « جاء جبريل فبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

فرضى الله عنهما وعن ذريتهما وعن آل بيت رسول الله ﷺ جميعا وعن صحابة رسول الله أمعين.

جعفر بن أبى طالب - ر ضى الله عنه -

هو ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد المناف بن قصى، أخو سيدنا على، كنيته أبو عبد الله وابنه عبد الله زوج السيدة زينت بنت علىّ.

مناقبه - ر ضى الله عنه - :

كان رضى الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام وهاجر إلى الحبشة

وكان المتحدث الرسمي باسم المسلمين في الحبشة، وهاجر إلى المدينة، وشهد الغزوات مع الرسول ﷺ وأبلى بلاء حسنا ولقى الله شهيداً.

وفاته - رضى الله عنه - :

توفى شهيداً، فى غزوة مؤتة وكان حامل اللواء وأبلى فيها بلاء حسناً وأنشد شعرا عن الجنة وهو يجاهد الكفار وبعد وفاته وجد المسلمون به بضعا وتسعين طعنة ورمية، وكان عمره أربعين عاما وقيل أكثر بقليل وقيل غير ذلك.

بشارته بالجنة - رضى الله عنه - :

لما مات جعفر حزن عليه النبى ﷺ أشد الحزن ودخل على أولاده ومسح بيده الشريفة على رءوسهم وقبلهم وبكى ﷺ وأمر أهله أن يصنعوا لآل جعفر طعاما فقد جاءهم ما يشغلهم.

وبشر رسول الله ﷺ بأنه فى الجنة فقال ﷺ : «رأيت جعفر ملكا يطير فى الجنة مع الملائكة بجناحين»، وهكذا كانت البشرى لأهل جعفر بأنه فى الجنة، ولذلك قال عبد الله بن جعفر قال لى رسول الله ﷺ : «هنيئا لك أبوك يطير مع الملائكة فى السماء».

ولذلك كان ابن عمر يسلم على عبد الله بن جعفر يقول له : السلام عليك يا ابن ذى الجناحين، فصار لقب ذى الجناحين خاصا بسيدنا جعفر -رضى الله عنه- .

بلال بن رباح - رضى الله عنه -

هو بلال بن رباح الحبشى ، كنيته أبو عبد الله .

مناقبه - رضى الله عنه - :

كان رضى الله عنه من أوائل السابقين إلى الإسلام وعذب كثيرا لأجل إسلامه وكان سيده أمية بن خلف يعذبه ببطحاء مكة وقت الحر ويضربه بالسياط وهو يقول أحد أحد وكان الرسول ﷺ يقول له اصبر، وضرب رضى الله عنه أروع الأمثلة فى الإيمان الصادق والثبات على العقيدة الصحيحة وتحدى المشركين وأعلن إسلامه دون خوف، وأشفق عليه سيدنا أبو بكر من الهلاك فاشتراه ليريحه من التعذيب وأعتقه لله، ولذلك كان سيدنا عمر يقول بتواضع : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » يا لعظمة الإسلام وآدابه الرفيعة الذى علم الصحابة التواضع والاحترام.

وسيدنا بلال هو مؤذن الرسول ﷺ وهو الذى نزل فيه هو وستة قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف]

وكان يحب الرسول ﷺ حبا كبيراً.

بشارته بالجنة :

لما صعد النبى ﷺ إلى السماوات العلا فى رحلة المعراج سمع صوت نعل بلال فى الجنة وبشره الرسول بذلك قائلا ﷺ : «يا بلال حدثنى بأرجى

عمل عملته عندك فى الإسلام منفعة فإنى سمعت الليلة خشف - أى صوت - نعليك بين يدى فى الجنة » فقال : ما عملت عملا فى الإسلام أرجى عندى منفعة من أن أتطهر طهورا تاما - أتوضأ - فى ساعة من ليل ولا نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لى أن أصلى ».

فعلم ﷺ أنه بلغ ما بلغ بفعله هذا ولذلك سن صلاة ركعتين سنة الوضوء.

وقال أيضا ﷺ : « رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبى طلحة وسمعت خشفه فقلت من هذا فقال : هذا بلال ».

وفاتــه :

توفى رضى الله عنه بالشام فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة من الهجرة وكان خارجا للجهاد فى الشام فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب.

زيد بن حارثة - رضى الله عنه -

هو زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى مولى رسول الله وكنيته أبو أسامة.

قصته مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

تروى الروايات أن زيدا أُسر فى الجاهلية أو تاه من أسرته فبيع مع العبيد واشتراه حكيم بن حزام من أشراف مكة وأهداه لعمته السيدة خديجة بنت خويلد فوهبته السيدة خديجة لرسول الله ﷺ ليكون مولى رسول الله ﷺ وعرف بزيد بن محمد وعلم أبوه وعمه بوجوده فى مكة عند رسول الله ﷺ ولم يكونا مسلمين فجاءا إلى رسول الله يطلبان منه زيدا ابنهما بأى فداء يطلبه

فرفض الفداء وعرض ﷺ على زيد الذهاب مع أبيه وعمه أو البقاء معه وترك له الاختيار فاختار زيد البقاء مع رسول الله ﷺ على أبيه وأهله وقد اختار الأصلح لدينه ودنياه وهذا دليل رشده منذ الصغر، وتبناه من وقتها وعُرف بين الناس بزيد بن محمد حتى أبطل الله التبنى حتى لا تختلط الأنساب حفظا للحقوق وصونا للأعراض ونزل قوله تعالى :

﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (٥) ﴾ [الأحزاب]

وأمر الله نبيه بتحريم التبنى ومن لم يعلموا آباءهم فهو إخوانهم فى الدين ومواليهم، فنودى زيد من وقتها باسم زيد بن حارثة أو زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مناقبه :

أسلم زيد عندما بعث النبى ﷺ وعلم بالإسلام واقتنع بمبادئه، وكان يؤدى الصلاة مع رسول الله ﷺ وأكثر ملازمة الرسول ﷺ وكان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ وكان ابنه أسامة بن زيد أحب أبناء الصحابة إلى قلب رسول الله فكان ﷺ يقول عن أسامة «الحِب ابن الحِب» وورد أن سيدنا عمر فى خلافته أكثر العطاء لأسامة فلما تعجب عبد الله بن عمر وقال لأبيه أتفضله علىّ قال له عمر غاضبا والله لقد كان رسول الله ﷺ يحبه أكثر منك وكان يحب أباه أكثر من أبيك، وهذا دليل تواضع عمر وإيمانه وأنه كان ينزل الناس منازلهم مع أن منزلته عالية القدر والمكانة وقال فيه الرسول : « لو كان نبى بعدى لكان عمر» ولكنه التواضع ومن مناقب سيدنا زيد أيضا أن رسول

الله ﷺ زوجه بنت عمته السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها ولكن زواجهما لم يدم وكان زيد كلما شكا لرسول الله من زينب يأمره الرسول بالصبر وعدم طلاقها ولكن لحكمة من الله تم الطلاق حتى تزوج رسول الله بالسيدة زينب بأمر من الله حتى يبطل الله التبنى بطلانا عمليا.

ويبدأ بحبيبه رسول الله وذلك أن الأب يحرم عليه الزواج من زوجة ابنه لكن محمدا ﷺ لم يكن أبا زيد وإنما كان متبنيه فجاز له الزواج من زوجته المطلقة وكذلك ليبين الله للناس أن زيدا ليس ابن محمد وإنما هو مولى له فأمره بالزواج من زينب وصارت من أمهات المؤمنين.

ومن أعظم مناقب زيد رضى الله عنه أن الله ذكره باسمه صريحا فى القرآن الكريم فهو الصحابى الوحيد المذكور باسمه صراحة فى القرآن فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

بشارته بالجنة :

يقول ﷺ : «دخلت الجنة فاستقبلتنى جارية شابة أى فتاة - شابة - فقلت لمن أنت ؟ قالت : أنا لزيد بن حارثة » فهذه بشارته بالجنة وبحورية من حوارى الجنة عوضا له على صبره، وفى هذا عزاء لكل من امتحن فى الدنيا أو

أصيب بمصيبة أو حدث له مكروه فصبر أو صبر على زوجه فالله يخلف عليه ويعوضه خيراً.

وفاتــه :

استشهد سيدنا زيد بن حارثة رضى الله عنه فى غزوة مؤتة وكان قائد الجند وحامل اللواء وظل يقاتل حتى آخر نفس وأبلى بلاء حسنا ولقى ربه شهيدا فى أرض المعركة وسنه خمس وخمسون سنة وكان ذلك سنة ثمان من الهجرة ودعا له الرسول وترحم عليه وعلى من مات معه من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

ثابت بن قيس - رضى الله عنه -

هو ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك بن امرىء القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج كنيته أبو محمد.

بشارته بالجنة :

كان ثابت رضى الله عنه جهير الصوت أعلى الأنصار صوتا وخطيبهم، ولما نزل قول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ② ﴾ [الحجرات]

جلس فى بيته وظن أنه المقصود بهذه الآية وأنه من أهل النار، وغاب عن رسول الله ﷺ فسأل عنه وظن أنه مريض وسأل سعد بن معاذ قائلا له : « يا أبا عمرو ما شأن ثابت ؟ اشتكى ؟» أى به مرض، فقال سعد إنه جارى وما

علمت له بشكوى فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال له ثابت أنزلت هذه الآية ولقد علمت أنى أرفعكم صوتا على رسول الله فأنا من أهل النار وهو يبكى فذهب سعد إلى الرسول وقص عليه الخبر فقال له رسول الله مبشرا :

«بل هو من أهل الجنة »، وفى رواية قل له : «إنك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة» فأثلج ذلك صدر ثابت فكانت بشارتان الأولى أنه ليس المقصود بالآية والثانية أنه من أهل الجنة وقال أنس بن مالك – رضى الله عنه – فكنا نراه يمشى بين أظهرنا رجل من أهل الجنة – رضى الله عن الصحابة أجمعين.

حارثة بن النعمان - رضى الله عنه -

هو حارثة بن النعمان بن نفيع بن زيد بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك ابن النجار الخزرجى، كنيته أبو عبد الله.

مناقبه :

شهد الغزوات كلها مع رسول الله ﷺ ابتداء من غزوة بدر، وألقى السلام على رسول الله ﷺ ذات يوم وكان بجواره جبريل عليه السلام فرد جبريل على حارثة السلام، ومن أعظم مناقبه أنه كان تقيا بارا بأمه مطيعا لها وكان ذلك سبب بشارة الله له بالجنة.

بشارته بالجنة :

يقول ﷺ : «دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة فقلت ما هذه ؟ قالوا حارثة بن النعمان، كذا كم البر كذا كم البر، وكان بارا بأمه».

يا لها من روعة بر الوالدين تصل إلى أن يبشر الله رسوله أن حارثة من أهل الجنة جزاء بره بأمه.

إلى الناس جميعا ألا فتعلموا من صحابة رسول الله بر الوالدين واعلموا أن ثوابه عاجل وآجل وعقوق الوالدين عقابه آجل وعاجل، وعقوق الوالدين من أكبر الكبائر، وبر الوالدين من أعظم القربات والطاعات وورد فى الأثر أن النظر فى وجه الوالدين عبادة (تعدل حجة نظرة رضا وحب واستعطاف ورحمة).

ومن نظر فى وجه والديه أو أحدهما نظرة غضب ملأ الله وجهه يوم القيامة نارا والعياذ بالله.

إلى كل بار بوالديه هنيئا لك الجنة بسبب برك بأمك وأبيك وإلى كل عاق عند إلى ربك واستغفر لذنبك وارض والديك حتى يرضيا عنك قبل أن يموتا واندم على ما فعلت وتب توبة نصوحة صادقة.

حارثة بن سراقة - رضى الله عنه -

هو حارثة بن سراقة بن الحارث بن عدى الأنصارى، وكان أبوه من صحابة رسول الله ﷺ واستشهد فى غزوة حنين، أما أمه فهى الربيع بنت النضر.

بشارته بالجنة :

استشهد حارثة يوم بدر وكان غلاما، وكانت أمه تحبه حبا شديد ومتعلقة به أشد التعلق فجاءت إلى رسول الله ﷺ لكى يصبرها ويهون عليها وقالت له : يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة منى فإن يكن فى الجنة أصبر وأحتسب وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع فقال لها ﷺ مبشرا لها أنه من أهل الجنة « ويحك أوجنة واحدة هى ؟ إنها جنان كثيرة وإنه فى جنة الفردوس » فرضى الله عن الصحابة أجمعين.

أبو الدحداح - رضى الله عنه -

بشارته بالجنة :

جاء رجل إلى النبى ﷺ وقال له : « إن لفلان نخلة وأنا أقيم حائطى بها فمره يعطنى إياها أقيم بها حائطى فقال رسول الله ﷺ للرجل « أعطه إياها بنخلة فى الجنة» فرفض الرجل فقال أبو الدحداح للرجل بعنى نخلتك بحائطى فوافق الرجل فجاء أبو الدحداح للرسول ﷺ وقال له إنى قد ابتعت - أى اشتريت - النخلة بحائطى وقد أعطيتكها - أى وهبتها لك - فاجعلها له - أى للرجل السائل الذى يريد أن يقيم بها حائطه - فقال ﷺ : « كم من عذق رواح لأبى الدحداح فى الجنة» فذهب إلى زوجته وقال لها اخرجى فقد بعته بنخلة فى الجنة فقالت : ربح السعر، ولم تقل له خربت البيت أو عيشنى اليوم وغير ذلك، وليت نساءنا يتعلمن من هذه الدروس ويستفدن منها ويفضلن الباقى على الفانى.

عكاشة بن محصن - رضى الله عنه -

بشارته بالجنة :

قال رسول الله ﷺ : «عرضت علىّ الأمم فجعل النبى والنبيان يمرون معهم الرهط - أى أقل من عشرة رجال - والنبى ليس معه أحد حتى رفع لى سواد عظيم قلت ما هذا ؟ لمن هذه ؟ قيل هذا موسى وقومه، وقيل انظر فى أفق السماء فإذا سواد قد ملأ الأفق قيل : هذه أمتك ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب». ثم تركهم رسول الله ﷺ ودخل بيته وجعل الناس يقولون نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله إذن فنحن هم، أو أولادنا الذين ولدوا فى الإسلام، فبلغ ذلك الرسول ﷺ فخرج عليهم قائلا : «هم الذين لا يسترقون ولا

يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» فقال عكاشة بن محصن، أمنهم أنا يا رسول الله؟ فقال : ﷺ «نعم » فقال آخر أمنهم أنا ؟

فقال ﷺ : « سبقك بها عكاشة » رضى الله عنه.

عبد الله بن سلام - رضى الله عنه -

هو عبد الله بن سلام بن الحارث من بنى قينقاع وأصلهم من سلالة نبى الله يوسف، وكان من أحبار اليهود أى كبار علمائهم، وكان أبوه عالم اليهود وأفضلهم فى المدينة، وأسلم عبد الله بن سلام حين قدم رسول الله ﷺ المدينة مهاجرا وكان عنده علم الكتاب ويعلم صفة النبى المرتقب فلما رأى رسول الله ﷺ عرف أن وجهه ليس بوجه كذاب فذهب إليه وأعلن إسلامه وحسن إسلامه وأبلى بلاء حسنا فى الغزوات مع رسول الله ﷺ .

بشارته بالجنة :

أتى النبى ﷺ بقصعة فأكل منها ففضلت فضلة - أى بقية - فقال رسول الله ﷺ : «يأتى رجل من هذا الفج - أى الطريق - من أهل الجنة يأكل هذه الفضلة، يقول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وكنت تركت أخى ابن سلام فأكلها.

ورقة بن نوفل

هو ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى بن قصى بن كلاب القرشى ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد، وترك عبادة الأوثان ودرس النصرانية وقرأ كتبها وهو الذى بشر خديجة لما جاءت وقصت عليه ما حدث للرسول ﷺ فى الغار وقوله لها زملينى بشرها بأنه نبى هذا الزمان الذى هو مذكور فى الكتب، وقال للرسول : هذا الناموس الذى نزل على موسى، وليتنى أكون وقتها حيا إذ

يخرجك قومك فتعجب النبى ﷺ قائلا : « أو مخرجى هم ؟» قال له : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزراً». (والناموس هو الوحى)

بشارته بالجنة :

قال فى حقه ﷺ : «لا تسبوا ورقة بن نوفل فإنى رأيت له جنة أو جنتين».

الرميصاء زوجة أبى طلحة - رضى الله عنه -

هى أم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار الأنصارية الخزرجية، أم أنس بن مالك رضى الله عنه.

مناقبها :

كانت أم سليم رضى الله عنها من أفاضل النساء فقد آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة وكان زوجها غائبا فى سفر فعندما عاد حاول الضغط عليها حتى تعود لما كانت عليه فرفضت بإباء وعارضته ولم ترجع عن الإسلام وجعلت تلقن ولدها أنس التوحيد، ولما مات زوجها أهدت ولدها أنس بن مالك لرسول الله ﷺ ليكون خادما له وترجت رسول الله أن يقبله منها فقبله وأحسن معاملته ليقتدى به فى معاملة الخدم والمماليك، ورفضت أم سليم الزواج من أبى طلحة الذى تقدم لها إلا أن يؤمن بالله وقالت له مهرى أن تؤمن بالله واقتنع بالإسلام وأن ما يعبد حجرا أو خشبا لا يضر ولا ينفع علم أن الإسلام حق فآمن فتزوجته ولم تأخذ منه صداقا.

من أعظم مناقبها إيمانها الصادق وعقيدتها الثابتة التى فى سبيلها ومن أجلها يهون كل شىء وكانت مثالا للزوجة الطائعة التى تعرف حق زوجها عليها

وروى أن أحد أبنائها من أبى طلحة مات وهو طفل صغير فحمدت الله واسترجعت أى قالت : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾

وقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بموت ابنه فأنا أحدثه، وكان غائبا، وعندما عاد قربت إليه الطعام والشراب ثم لبست وتزينت له أحسن مما كانت تصنع قبل ذلك فجامعها فبعد ذلك قالت له : أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم (أى أعطوا شيئا خاصا بهم) أهل البيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم فقال : لا، فقالت له احتسب ابنك عند الله فقد استرد عاريته فغضب أبو طلحة وذهب وشكاها إلى رسول الله ﷺ ويسترشد منه هل ما فعلته حسنا فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما فى ليلتكما » واستجاب الله ذلك، قيل فأذن الله تعالى لها أن تحمل من ذلك اليوم وولدت ولدا سماه الرسول ﷺ عبد الله وقيل رزقهما الله عشرة من الولد كلهم يحفظون القرآن الكريم جزاء صبرهما.

وشهدت رضى الله عنها كثيرا من الغزوات مع رسول الله ﷺ وكان تحمل خنجرا وتقاتل فى صفوف الصحابة وتضمد جراحهم.

سميرة الأسدية - رضى الله عنها -

هى امرأة حبشية اسمها سميرة الأسدية المعروفة بأم زفر وكانت تأتيها نوبات صرع وكان بها مس من الجن فكان يغمى عليها ولا تدرى بنفسها فترة ثم تفيق وكانت هذه الحالة تأتيها كثيرا.

بشارتها بالجنة :

بشرها رسول الله ﷺ بالجنة جزاء صبرها، وهذا عزاء لكل من ابتلاه الله بمصيبة أو مرض أو مكروه، فعليه أن يصبر حتى يعوضه الله عن صبره خيرا ويثيبه عليه من الحسنات.

قال : ابن عباس لعطاء بن أبى رباح : ألا أريك امرأة من أهل الجنة فقال: بلى، فقال له : هذه المرأة السوداء أتت رسول الله ﷺ فقالت : إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله لى فقال لها ﷺ : « إن شئت صبرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك» فقالت : أصبر لكنى أتكشف - أى تظهر عورتى حين أقع مصروعة مغمى علىّ - فادع الله لى أن لا أتكشف فدعا لها أن يسترها ولا تتكشف عورتها.

وفى رواية : قالت : إن الخبيث يتكشفن.

من شهدوا بيعة العقبة وأهل غزوة بدر - والحديبية - وهم أهل بيعة الرضوان

تدل الروايات الصحيحة على أن أهل بيعة العقبة وأهل بدر والحديبية - وأهل بيعة الرضوان وهم من بايعوا تحت الشجرة - كلهم من أهل الجنة.

هذا وذكرت كتب السير والمغازى أن عدد أهل بدر كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجل منهم سيدنا حمزة بن عبد المطلب أسد الله والذى استشهد فى غزوة أُحد بعدها بعام.

وتروى كتب السيرة أيضا أن عدد أهل الحديبية أكثر من ألف وأربعمائة وهم من بايعوا تحت الشجرة «بيعة الرضوان» وكلهم فى الجنة بنص صريح صحيح ورد عن رسول الله ﷺ ومن قوله : «لن يدخل النار رجل شهد بدرا والحديبية» وقوله : «ردا على من قال إن حاطب بن أبى بلتعة لا يدخل الجنة وأنه من أهل النار وذلك لأنه أرسل إلى قريش كتابا مع امرأة يخبرهم بأن الرسول ﷺ يريد غزوهم وفعل ذلك لخوفه على أقاربه فى مكة ورحمهم وليس خيانة للرسول ولا غدرا بالمسلمين.

وأعلم الله نبيه فأرسل سيدنا عليا وبعض الصحابة للمرأة على حدود المدينة فلحقوا بها وأخذوا منها الكتاب وعفا الرسول عن حاطب لحسن نيته ورد على من قال إن حاطب من أهل النار قائلا لهم ﷺ: « كذبت قد شهد بدرا والحديبية» وفى رواية « كذبت ، لا يدخلها فإنه شهد بدرا والحديبية».

وفى رواية « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» هذا عمن شهد بدرا أما أهل الحديبية فنزل فيهم قرآن يتلى إلى يوم القيامة يشهد الله لهم بالرضا عنهم ورضاه مغفرة للعبد ورحمة، فقال تعالى:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) ﴾ [الفتح]

وقال ﷺ مبشرهم بالجنة : «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد».

عموم الصحابة - رضى الله عنهم -

قال الإمام ابن حزم : الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعا، وذلك ثابت بالقرآن فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (10) ﴾ [الحديد]

فثبت بهذه الآية أن الصحابة جميعهم من أهل الجنة ولن يدخل أحد منهم النار.

كل من قال لا إله إلا الله :

كل من آمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وآمن بالقدر خيره وشره وأن كلا من عند الله فإنه - إن شاء الله - من أهل الجنة.

وختاما

وعلى هذا يكون ما ذكرناه من العشرة المبشرين بالجنة وغيرهم غير المشهورين ليس على سبيل الحصر وإنما كان كل واحد منهم له قصة وبشارته لها مناسبة، ولذلك فالعشرة جاءت بشارتهم مرة واحدة، أم الباقون فجاءت بشارتهم فى مناسبات حسب كل حالة على حدة وفى الظروف والمناسبات حسب كل حالة على حدة وفى ظروف مختلفة، وكلها بشارات من الله على لسان نبيه فليست هذه البشارات من عند النبى ﷺ لأنه:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) ﴾ [النجم]

فعلينا نحن المسلمون أن نقتدى بهؤلاء الأعلام الأطهار والمصطفين الأخيار.

صفة الجنة وما أعده الله لأهلها

قال الله تعالى فى الحديث القدسى : « أعددت لعبادى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» وقال ﷺ : « اقرءوا إن شئتم »

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة]

قال ﷺ : « يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتغوطون، ولا يتمخطون ولكن طعامهم ذلك جشاء المسك، ويلهمون التسبيح والتكبير كما يلهمون النفس»

وفى رواية «لا يبولون، ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة – عود الطيب – أزواجهم الحور عين، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السما» قال ﷺ : «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال : «بلى والذى نفسى بيده أناس آمنوا وصدقوا المرسلين».

وصدق الله القائل : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) ﴾ [الطور]

اللهم اجعلنا منهم يارب العالمين.

المبشرون بالنار

إبليس زعيم الكافرين

إبليس خلق من النار، قال تعالى :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [الحجر].

وعن عائشة – رضى الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»، وأطبقت كلمة الأمة على أن الجن خلقت قبل آدم عليه السلام.

والنصوص تثبت أن إبليس – لعنه الله – من الجن، قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف].

وعن ابن عباس كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية « عزازيل »، وكذلك قال سعيد بن جبير، وقال الحسن البصرى : «لم يكن من الملائكة طرفة عين وأنه لأصل الجن كما أن آدم أصل البشر».

قالوا : فلما أراد الله تعالى خلق آدم ليكون فى الأرض هو وذريته من بعده وصور جثته منها جعل إبليس وهو رئيس الجان وأكثرهم عبادة إذ ذاك يطيف به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك، وقال : أما لئن سلطت عليك لأهلكتك ولئن سلطت على لأعصينك.

فلما أن نفخ الله فى آدم من روحه وأمر الملائكة بالسجود له دخل إبليس منه حسد عظيم وامتنع من السجود له وقال :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فخالف الأمر واعترض الرب عز وجل وأخطأ فى قوله وابتعد من رحمة ربه وأنزل من مرتبته التى كان قد نالها بعبادته وكان قد تشبه بالملائكة ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار وهم من نور فخانه طبعه فى أحوج ما كان إليه ورجع إلى أصله النارى.

﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) ﴾ [الحجر]

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى فنزل إلى الأرض حقيرا ذليلا مذموما مدحورا متوعدا بالنار هو ومن اتبعه من الجن والإنس».

فلما طرده الله ولعنه إلى يوم الدين طلب الإنظار إلى يوم القيامة وتوعد آدم وذريته. قال تعالى :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) ﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير : فإبليس لعنه الله حى الآن مُنظر إلى يوم القيامة بنص القرآن، وله عرش على وجه البحر وهو جالس عليه ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن.

عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «عرش إبليس فى البحر يبعث سراياه فى كل يوم يفتنون الناس فأعظمهم عنده منزلة أعظمهم فتنة للناس ».

وعن جابر أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يضع عرشه على الماء يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة. يجيء أحدهم فيقول مازلت به حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس لا والله ما صنعت شيئا. ويجيء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله. قال فيقربه ويدنيه ويقول نعم أنت ».

بمعنى : نعم أنت ذاك الذى تستحق الإكرام ويكسرها أى نعم منك.

مداخل الشيطان على الإنسان

ذكر ابن القيم – رحمه الله – ست مراحل يتدرج الشيطان بها لإيقاع الإنسان فى الهلاك.

المرحلة الأولى : يسعى الشيطان لأن يكفر الإنسان أو يشرك، فإذا لم يستطع أن يظفر بذلك نزل إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية : وهى مرحلة البدعة، وهى أن يجعل الإنسان يبتدع، ويطبق البدع، فإذا كان ذلك الرجل من أهل السنة، بدأ معه فى المرحلة الثالثة.

المرحلة الثالثة : وهى مرحلة الكبائر، مرحلة المعاصى الكبيرة، فإذا كان ذلك الرجل قد عصمه الله من تلك الأمور، فإن الشيطان لا ييأس.

المرحلة الرابعة : وهى مرحلة الصغائر، فإذا عصم منها.

أى يتحرز من الوقوع فيها فإذا ألم يذنب صغير سارع بالتوبة والإنابة. فإن الشيطان يبدأ مع العبد بأسلوب آخر.

المرحلة الخامسة : وهى أن يشغل الشيطان الإنسان بالمباحات بحيث ينشغل الإنسان فيضيع وقته فى أمر مباح، فلا ينشغل بالأمور الجادة.

المرحلة السادسة : وهى أن يُشغل الإنسان بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، بعمل معين طيب، ولكنه ينشغل به عما هو أطيب منه، كأن ينشغل مثلا بسنة عن فريضة، ينشغل بالسنة ويترك الفريضة.

وليس معنى هذا إذن أن يترك الإنسان السنة ويحقر من شأنها، ويعتبر تطبيقها عقبة فى انتصار الإسلام !! لا ولكن عليه أن يطبق الدين بشموله، فروضه وسننه، الأمور الظاهرة منه والباطنة شريطة ألا تشغله السنة عن الفريضة .

فائدة : قدم ابن القيم - رحمه الله - البدعة على الكبيرة، لأن البدعة أحب إلى إبليس من الكبيرة قال سفيان الثورى : « البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصيةُ يتاب منها والبدعة لا يتاب منها » ومعنى يتاب : يرجع.

لاعتقاد الإنسان فى البدعة أنها تقربه من الله تعالى وهى ليست كذلك.

مداخل أخرى للشيطان :

للشيطان مداخل أخرى يستطيع من خلالها تحقيق أهدافها منها :

(١) الغضب والشهوة : فإن الغضب هو غول العقل ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبى بالكرة.

(٢) ومن أبوابه : الحسد والحرص فمهما كان العبد حريصا على شىء أعماه حرصه وأصمه وجعله منقادا للضلال.

وكان الحسن يقول : «أصول الشر ثلاثة : الحرص، والحسد، والكبر، فالكبر منع إبليس من السجود لآدم، والحرص أخرج آدم من الجنة، والحسد حمل ابن آدم على قتل أخيه ».

(٣) ومن أبوابه : الشبع من الطعام وإن كان حلالا فإن الشبع يقوى الشهوات، والشهوات من أسلحة الشيطان.

قال وهيب بن الورد : بلغنا أن الخبيث إبليس تبدى ليحيى ابن زكريا عليهما السلام فقال له : « إنى أريد أن أنصحك قال : كذبت أنت لا تنصحنى ولكن أخبرنى عن بنى آدم.

قال إبليس : هم عندنا ثلاثة أصناف، أما صنف، منهم فهم أشد الأصناف علينا نُقبل حتى نفتته ونتمكن منه.

ثم يفزع إلى الاستغفار والتوبة فيفسد علينا كل شىء أدركنا منه. ثم نعود له فيعود فلا نحن نيأس منه ولا نحن نُدرك منه حاجتنا فنحن من ذلك فى عناء.

وأما الصنف الآخر، فهم بين أيدينا بمنزلة الكرة فى أيدى صبيانكم نتلقفهم كيف شئنا فقد كفونا أنفسهم.

وأما الصنف الآخر فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شىء. فقال له يحيى : على ذاك هل قدرت منى على شىء ؟

قال : لا إلا مرة واحدة فإنك قدمت طعاما تأكله فلم أزل أشهيه لك حتى أكلت أكثر مما تريد فنمت تلك الليلة ولم تقم إلى الصلاة كما كنت تقوم إليها.

قال : فقال له يحيى : لا جرم لا شبعت من طعام أبدا حتى أموت.

فقال له الخبيث : لا جرم لانصحت آدميا بعدك.

(٤) ومن أبوابه : الطمع فى الناس، لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يصير المطموع فيه كأنه معبوده.

(٥) ومن أبوابه: العجلة وترك التثبت فى الأمر، وعند العجلة يروج

الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدرى فالعجلة من الشيطان والتأنى من الله.

(٦) ومن أبوابه : التعصب للمذاهب والأهواء والمشايخ والحقد على الخصوم.

(٧) ومن أبوابه : سوء الظن بالمسلمين . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [الحجرات].

(٨) ومن أبوابه : البخل والخوف من الفقر قال سفيان : « ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر، فإذا قبل منه أخذ فى الباطل، ومنع من حق وتكلم الهوى، وظن بربه ظن السوء ».

وقال حاتم الأصم : « ما من صباح إلا والشيطان يقول لى : ماذا تأكل ؟ وماذا تلبس ؟ وأين تسكن ؟ فأقول : آكل الموت وألبس الكفن وأسكن القبر».

صور من مكايد الشيطان :

(١) من كيد الشيطان للإنسان : أنه يورده الموارد التى يخيل إليه أن فيها منفعته ثم يصدره المصادر التى فيها عطبه، ويتخلى عنه، ويسلمه، ويقف يشمت فيه، ويضحك منه. كما قال تعالى:

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) ﴾ [الأنفال].

(٢) ومن كيده : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يجاهدونهم، كما قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾ [آل عمران].

(٣) ومن كيده أنه يزين الفعل الذى يضر الإنسان، حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذى هو أنفع الأشياء له حتى يخيل إليه أنه يضره، وكم فتن بهذه الحيل من إنسان، وكم حلا الباطل وأبرزه فى صورة مستحسنة، ومنع الحق وأخرجه فى صورة مستهجنة، فزين للناس عبادة الأصنام وقطيعة الرحم، ونكاح الأمهات ووعدهم الفوز بالجنات، مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التودد إلى الناس وحسن الخلق معهم.

(٤) ومن كيده : الحث على الغلو فى الدين أو التفريط فيه.

يقول بعض السلف : « ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان إما إلى التفريط والتقصير، وإلى إما مجاوزة وغلو ولا يبالى بأيهما ظفر».

(٥) ومن كيده : تزيين كلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة التى هى زبالة الأذهان ونحاتة الأفكار والزبد الذى يقذف به القلوب المظلمة المتحيرة التى تعدل الحق بالباطل والخطأ بالصواب فمركبها القيل والقال، وكثرة الجدال، ليس لها حاصل من اليقين يعول عليه، ولا معتقد مطابق للحق يرجع إليه، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، قد اتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورا فهم فى شكهم يعمهون وحيرتهم يترددون أعاذنا الله من ذلك.

(٦) ومن كيده لأهل الصلاح والعلماء: أنه يغرى الناس بتقبيل يده،

والتمسح به، والثناء عليه، وسؤاله الدعاء، ونحور ذلك، حتى يرى نفسه ويعجبه شأنه، فلو قيل له : إنك من أوتاد الأرض، وبك يدفع البلاء عن الخلق ظن ذلك حقا، وذلك كل الهلاك، فإذا رأى من أحد الناس تجافيا عنه، أو قلة خضوع له، تذمر لذلك ووجد فى باطنه، وهذا أشر من أرباب الكبائر المصرين عليها وهم أقرب إلى السلامة منه.

وعن هؤلاء قال الحسن : « كم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور يستر الله عليه ».

(٧) ومن كيده : أمرهم بلزوم زى واحد ولبسة واحدة وهيئة واحدة ومشية معينة وشيخ معين وطريقة مخترعة، ويفرض عليهم لزوم ذلك بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض فلا يخرجون عنه ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمونه.

(٨) ومن كيد الوسواس الذى كادهم به فى أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية حتى ألقاهم فى الأصفاد والأغلال وأخرجهم عن إتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيل إلى أحدهم أن ما به السنة لا يكفى حتى يضم إليه غيره، فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد والتعب الحاضر وبطلان الأجر وتنقيصه، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله أو صلى كصلاته فوضوؤه باطل وصلاته غير صحيحة.

إبليس يتبرأ من أتباعه يوم القيامة :

عن عقبة بن عامر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ إذا جمع الله الأولين والآخرين فقضى بينهم ففرغ من القضاء. قال المؤمنون : قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : إنطلقوا بنا إلى آدم، وذكر نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى. فيقول عيسى : أدلكم على النبى الأمى، فيأتونى، فيأذن الله لى أن أقوم إليه فيثور من مجلسى من أطيب ريح شمها أحد قط، حتى آتى ربى

فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى، ثم يقول الكافرون - هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس هو الذى أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبهم :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم].

قال ابن كثير : وهذا سياق ابن أبى حاتم، ورواه ابن جرير.

وعن الحسن : إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبا على منبر من نار فقال : ﴿ إن الله وعدكم ﴾ إلى قوله : ﴿ وما أنتم بمصرخى ﴾ قال : بناصرى. ﴿ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ قال : بطاعتكم إياى فى الدنيا[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبى الدنيا (فتح القدير ج٣ ص١٠٥)

(٢) قابيل أول قاتل فى تاريخ البشرية

ما أحقر الإنسان عندما يموت ضميره، وتقوده شهوته، وتتلبد مشاعره، ويتحجر قلبه إنه يتحول إلى وحش كاسر، وإلى ثعلب ماكر، وإلى شيطان مريد، لعنه الله.

– لا تنفعه المواعظ، ولا يُنتظر منه رحمة، لقد أمسك الشيطان بزمامه وغلبت عليه شقوته نعوذ بالله من ذلك.

كيف بدأت المأساة ؟

أقول : وقبل أن نبدأ فى سرد القصة، نعطى أولا فكرة عن صاحبى القصة، وهما من أولاد آدم عليه السلام.

الأول قابيل : كان رجلا أنانيا، تملكت عبادة الذات من نفسه، فطمست على عينه وقلبه، وكان يعمل : « حراثا » أى يشتغل بالزراعة.

الثانى هابيل : كان أخوه من بطن ثانية، وكان رجلا طيبا صالحا، يحب الخير للغير، عابدا لله، موقرا لأوامره، وكان يعمل برعى الأغنام.

ماذا حدث ؟

أنجبت حواء عشرين بطنا لآدم فى كل بطن ذكر وأنثى، وكانت الشريعة آنذاك تقضى أن يتزوج الرجل توأمته التى ولدت معه، كان ذلك لضرورة الحال.

ولدت حواء قابيل ومعه أخت جميلة تسمى : «لوذا» وولدت هابيل ومعه أخت تسمى «إقليميا».

كبر الأبناء، وشب الإخوة فى رعاية أمهم حواء وأبيهم آدم، وبلغ الأبناء مبلغ الشباب، وأخذ قابيل وهابيل يضربان فى الأرض طلبا للرزق، وسعيا وراء

متطلبات الحياة، وكان قابيل - وهو أكبر ولد آدم - صاحب زرع وحرث. وكان هابيل صاحب ماشية وغنم، وبعد مضى فترة من الزمن، أحب كل من قابيل وهابيل أن تكون له زوجة ليسكن إليها، وأفضيا بذلك إلى والديهما، وأوحى الله عز وجل إلى آدم أن يزوج قابيل من توأمة هابيل، ويزوج هابيل من توأمة قابيل.

عن سعيد بن المسيب قال : إن الله أمر آدم أن يفرق فى النكاح من كل بطن هذا لتلك، وتلك لهذا.

امتثل آدم أمر ربه، وأفضى لقابيل وهابيل بما أمره الله، إلا أن قابيل رفض ما قاله آدم، ولم يرض بهذا الزواج، لأنه اعتبر أن توأمة هابيل أقل جمالا من توأمته، وحسد أخاه هابيل على الزواج من شقيقته (لوذا) ولم يرض بالقسم وجمح عن طاعة والده، ولعبت به نوازع الشر والفساد، ولعب به الحسد ذات اليمين وذات الشمال، بينما ظل هابيل يحتفظ بالهدوء والسكينة والوقار، وامتثل ما أمره به والده آدم.

قال آدم لقابيل : « إن كنت لا ترضى، فقربا قربانا، فقربانكما سيقضى بينكما، قال قابيل : وكيف يقضى بيننا ؟! قال آدم : من يُقبل قربانه فهى له. أى الأخت الجميلة، لوذا ».

وكان قربانهما أن يتقربا بقربان، ثم يلقيانه على وجه الأرض، حتى تأتى نار، لتأكله ».

عمد هابيل إلى كبش سمين ليقربه إلى الله، وعمد قابيل إلى حزمة من القمح رديئة ليقربها إلى الله، وفى بعض الروايات - أنه رأى فيها سنبلة كبيرة فأخذها وفركها وأكلها.

وعمد كل واحد منها فوضع قربانه على مكان عالٍ، فنزلت نار من السماء فحملت كبش هابيل ورفعته إلى السماء (جاء عن ابن عباس وغيره - أن هذا

الكبش رفع إلى الجنة وظل يرتع فيها إلى أن نزل على إبراهيم ليفتدى به إسماعيل من الذبح).

وحسد قابيل أخاه هابيل، وانبعثت شروره، وعندئذ قال لأخيه هابيل: قُبل قربانك، ولم يُتقبل قرباني، لأقتلنك، فأجابه هابيل :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾ [المائدة].

قال ابن كثير : وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ وزجرا لو انزجر وقال ابن عباس : خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر.

وبذلك صور له هابيل إشفاقه هو من جريمة القتل، ليثنيه عما تراوده به نفسه، وليخجله من هذا الذى تحدثه به نفسه تجاه أخ مسالم وديع تقى.

قال تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) ﴾ [المائدة]

فطوعت له نفسه أى : « حسنت وسولت وجملت وزينت ».

« قتل أخيه فقتله » قيل : ضربه بحجر، وقيل : بحديدة فقتله.

« فأصبح من الخاسرين » نعم أصبح من الخاسرين.

خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك والبوار.. وخسر أخاه، وفقد بذلك الناصر والرفيق. وخسر أباه وأمه. واستنزل بذلك غضب الله عليه بسبب

غضبهما. وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر أخرته فباء بإثمه الأول، وإثمه الأخير.

فماذا كانت العاقبة :

قال ﷺ : « ما من ذنب أجدر أن يجعل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخر من البغى وقطيعة الرحم » (البخارى فى الأدب المفرد ، وأبو داود والترمذى وابن ماجة).

قال مجاهد : «علقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ ووجهه فى الشمس حيثما دارت دار، عليه فى الصيف حظيرة من نار، وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج» (تفسير ابن كثير ج٢ ص٧٢).

وقال عبد الله بن عمرو- رضى الله عنه - : «إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة. العذاب عليه شطر عذابهم» (ابن كثير ج٢ ص٧٢).

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل ».

وعن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول : « إن أشقى الناس رجلا لابن آدم الذى قتل أخاه، ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل ».

وقال إبراهيم النخعى : « ما من مقتول يقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفل منه ».

قلت : وبذلك حُرم من نعيم الدنيا والآخرة. وصدق ربنا تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ [الأعراف].

لم يكن هابيل - كما ورد فى الأخبار - ضعيفا، بل كان رجلا زاده الله بسطة فى العقل والجسم، وذكر ابن جرير - رحمه الله - فى تفسيره عن عبدالله بن عمرو قال : وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين، ولكن منعه التحرج أن يبسط إلى أخيه - يده - ومعنى التحرج أى : الورع.

وسقط فى أيدى قابيل، وجلس أمام أخيه القتيل ساكنا، ومثلت له سوأة الجريمة فى صورتها الحسية، صورة الجثة التى فارقتها الحياة فلا حراك بها - ووقف عاجزا أمام أخيه المضرج فى دمه وتساءل.

أين يذهب ؟ بها ، بل أين يخفيها ؟! لقد كان أخوه أول إنسان يموت على وجه الأرض من أبناء آدم، والظاهر أنه لم يكن دفن الموتى شيئا قد عُرف بعد.

قال الشوكانى - رحمه الله - لم يدر كيف يواريه لكونه أول ميت مات من بنى آدم .. أ.هـ.

ووقف قابيل لا يدرى ماذا يفعل، وبينما هو فى حيرته وسكونه إذ مزق الهواء صوت غراب آخر، فقتل أحدهما الآخر، فنزل الغراب القاتل فحفر للمقتول فى الأرض، ثم وارى جثته وأهال عليها التراب.. وهنا اكتشف قابيل ضعفه وعجزه لأنه لم يفكر مثل الغراب القاتل.

قال تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة].

قال الأستاذ أحمد خليل جمعة : « ومن الظاهر فى هذه الآية الكريمة أن

ندم قابيل لم يكن ندم توبة نصوح – وإلا لقبل الله تعالى توبته – وإنما كان الندم الذى اعتصره من عدم جدوى فعلته، وما أعقبه ذلك من تعب وشقاء وعناء وقلق ».

قال الدمير – رحمه الله – فى كتابه (حياة الحيوان) : قابيل أول من يُساق إلى النار من ولد آدم، قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت] وهما قابيل وإبليس.

وقال ابن جماعة – رحمه الله – فى كتابه - غرو التبيان : ﴿ اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا ﴾ هما : إبليس من الجن، وقابيل من الإنس لأنهما سنا المعصية.

وانتهت المأساة وخسر قابيل الدنيا والآخرة وأرداه حسده إلى دار البوار، وظفرها هابيل بتقواه بالنعيم المقيم.

وما أصدق قول الشاعر :

ألا قل لمن بات لى حاسداً	أيدى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فضله	كأنك لم ترض لى ما وهب
فكان جزاؤك أن خصنى	وسد عليك طريق الطلب

آيات وأحاديث تحذر من قتل النفس بغير حق :

(١) قال تعالى :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ

جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة].

قال الإمام ابن حجر الهيثمى : « وجعل قتل النفس الواحدة كقتل جميع الناس مبالغة فى تعظيم أمر القتل الظلم وتفخيما لشأنه أى كما أن قتل جميع الناس أمر عظيم القبح عند كل أحد فكذلك قتل الواحد يجب أن يكون كذلك ».

وقال ابن عباس : « من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا ومن شد عضد أحدهما فكأنما أحيا الناس جميعا ».

وقال مجاهد : من قتل نفسا محرمة يصلى النار بقتلها كما يصلاها لو قتل الناس جميعا، ومن أحياها أى من سلم من قتلها فكأنما سلم من قتل الناس جميعا ».

قال سليمان بن على للحسن : « يا أبا سعيد أهى لنا كما كانت لبنى إسرائيل؟ قال : والذى لا إله غيره ما كانت دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا ».

(٢) وقال تعالى :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء] والخلود : المكث الطويل، ولعنه : أبعده من رحمته.

(٣) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات» – أى المهلكات – قيل : يا رسول الله وما هن، قال : « الإشراك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ».

(٤) وفى الحديث أيضا :« لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما» رواه البخارى.

(٥) وعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : « لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق ».

(٦) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم النار» صحيح رواه البيهقى فى الشعب (٤/٣٥٣).

(٧) وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء ».

وصيانة للدماء التى تقتل بغير حق شرع الإسلام القصاص، وأعلن أن فيه الحياة قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة].

(٣) كنعان ابن نوح الإبن العاق

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود].

لبث نوح -عليه السلام- فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وترك ما يعبدون من الأصنام، ولكنهم أصروا على عبادتها واستكبروا استكبارا، وكانوا كلما دعاهم لترك عبادتها جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم، وظل يدعوهم ليلا ونهارا، سرا وجهرا فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) ﴾ [نوح]

أى لا تتركوا عبادة هذه . قال محمد بن كعب : هذه أسماء قوم صالحين. كانوا بين آدم ونوح، فنشأ بعدهم قوم يقتدون بهم فى العبادة، فقال لهم إبليس : لو صورت صورهم كان أنشط لكم وأسوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم فقال لهم إبليس إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك الوقت، وسميت هذه الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صورة أولئك القوم.

وقد بين القرآن أن نوحا لبث داعيا قومه مدة طويلة من الزمن ولم يستجب له إلا قليل، قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود].

واستعجل قومه عذاب الله تعالى. قال الله تعالى عنهم : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) ﴾ [هود].

ثم أوحى الله إلى نوح : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [هود].

لقد كان نوح – عليه السلام – شديد المحبة لإيمان قومه، فأعلم الله سبحانه أنه لا يؤمن منهم أحد ليزول عن قلبه ما كان قد حصل فيه من تلك المحبة عرفه الله عز وجل أنه معذبهم ومهلكهم .. عرفه البارىء أنه معذبهم بالغرق .. ولما كان السبيل الذى به يحصل النجاة من الغرق تكوين السفينة، لا جرم أمر الله نوحا بأن يعد السفينة، فأوحى إليه أن يصنعها .. أمره ألا يخاطبه فى الذين ظلموا ومعهم امرأته [وكانت تسخر من نوح ومن دعوته، واستسلمت هذه الشقية للشيطان واتخذت الكفر طريقا، والعناد سلوكا، والسخرية أسلوبا] .. لقد تقرر مصيرهم .. وانتهى الأمر فيهم .. فلا تخاطبنى فيهم بدعاء لهم أو عليهم، فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء .. وانتهى الأمر .. وأصدر البارى سبحانه حكمه العادل على الكافرين بالطوفان.

ويصنع الفلك :

بدأ نوح – عليه السلام – بتنفيذ أمر ربه فى اتخاذ الفلك – السفينة – ولم يكن لنوح ولا لغيره معرفة بصنع السفينة، لذا فقد أوحى الله إليه صنعها، وعلمه كيف ينبغى أن تكون،

قال تعالى : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود].

وشرع نوح – عليه السلام – بصنع السفينة، وأعد العدة لذلك، ويبدو أن امرأته كانت تراه وهو ينقل الأخشاب، ومن ثم يبدأ العمل فى صناعتها على شكل سفينة.. ولكن ليس قرب البحر، أو قرب نهر كبير، مما أثار دهشة امرأته واستغرابها، وراحت تسأله فى تهكم ! ماذا تصنع بهذه الأخشاب يا نوح ؟! فقال نوح : سفينة أنجو بها ومن معى من المؤمنين إذا جاء أمر الله .. فقالت فى سخرية : وأين الماء الذى تجرى عليه سفينتك ؟ أظن أنك جُننت أو أصابك مس من غضب الآلهة، فهل يعقل أن تسير السفينة على اليبس ؟!

وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، وقالوا : يانوح صرت بعد النبوة نجارا ! إن هذا لشىء عجاب !

قال الماوردى – رحمه الله – إنهم لما رأوه يبنى السفينة ولم يشاهدوا قبلها سفينة بُنيت قالوا : يا نوح ، ما تصنع ؟

قال أبنى بيتا على الماء – فعجبوا من قوله وسخروا منه.

فقال لهم نوح : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود].

انتهى نوح من صنع السفينة – وذكر المفسرون وغيرهم أقوالا عن نوع الخشب الذى صنعت من السفينة. وعن حجمها وطولها وعرضها وارتفاعها.

قال شهاب الدين الألوسى: «فالحرى بحال من يميل إلى الفضول أن يؤمن بأنه –عليه السلام– أى نوح– صنع الفلك حسبما قص الله تعالى فى كتابه، ولا نخوض فى مقدار طولها وعرضها وارتفاعها، من أى خشب صنعها، وبكم مدة أتم عملها ؟! إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب، ولم تبينه السنة الصحيحة».

قال الإمام الفخر : «والذى نعلمه أنه كان فى السعة (أى الفلك) بحيث

يتسع للمؤمنين من قومه، ولما يحتاجون إليه ولحصول زوجين من كل حيوان، لأن هذا القدر مذكور، فى القرآن، فأما غير ذلك القدر فغير مذكور.

وفار التنور :

كان الله تعالى قد أعطى نوحا – عليه السلام – علامة تدل على بدء الطوفان، وهى نبع الماء من التنور : « تنور الخبز الذى يخبزونه فيه ».

أى نبع الماء من النار، وقال ابن عباس : التنور وجه الأرض، قيل له إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك. والعرب تسمى وجه الأرض تنور الأرض.

واقترب الوعد الحق، وجاء أمر الله، وفار التنور، وفتح الله أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الأرض عيونا، وصعد نوح، والمؤمنون إلى السفينة، ومعه من كل زوجين اثنين ودخلوا فيها .. قال لهم نوح :

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾ [هود].

نجا المؤمنون جميعهم عندما صعدوا السفينة، ووقاهم الله شر ذلك الطوفان، وغرق الكافرون الساخرون.

قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) ﴾ [القمر].

وانتصر طوفان الإيمان على طغيان الكفر، وارتفعت السفينة فوق الماء، وعلا الموج، وغطى الأرض، وغرقت امرأة نوح، لم تركب مع المؤمنين فى

السفينة ظنت أن بيتها يمنعها من الماء ويحميها من هديره، ولكن لا عاصم اليوم من أمر الله.

أما نوح - عليه السلام - فحين ركب السفينة، وأدخل فيها المؤمنين وأهله كما أمره، رأى ابنه - كنعان - فى جهة خارج السفينة وبمقربة منها حيث يسمع النداء - لم ير امرأته .. يئس من سلامتها .. ظن نوح أنها هى المستثناة وحدها .. وأنها هى التى سبق عليها القول من الله تعالى بختم الكفر والعذاب فقط .. طمع فى إيمان ابنه الذى كان عهد منه قبل ذلك - وكان ابنه كنعان يظهر له الإيمان ويبطن الكفر - والأنبياء عليهم السلام إنما عنوا بالظواهر والله يتولى السرائر.

ولما رأى ابنه بمقربة من السفينة حيث يسمع النداء، طمع فى سلامته، وحسن الظن أنه مؤمن، فقال له :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾ [هود]

وقوله لابنه : ﴿ وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾ دليل على أن نوحا كان يعتقد إيمان ابنه .. فلما قال له ابنه :

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ... (٤٣) ﴾ [هود].

قال له نوح : ﴿ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود].

قال الشوكانى عن كنعان ابن نوح : « كان منافقا فظن « أى نوح - عليه السلام - » أنه مؤمن.

قال تعالى: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود].

ثم أصدر الله تعالى أمره للأرض وللسماء : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [هود].

والبلع : الشرب – ويا سماء اقلعى – الإقلاع : الإمساك.

غيض الماء : نقص. استوت على الجودى أى : استقرت السفينة على الجبل المعروف بالجودى، وهو جبل بقرب الموصل.

وقيل بعدا للقوم الظالمين. أى : هلاكا للقوم الظالمين.

ومرة أخرى أخذ الحنين نوحا – عليه السلام – فاتجه لربه وقال :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود].

إنه عمل غير صالح : أى ذو عمل غير صالح.

فلا تسألن ما ليس لك به علم : لما بين له بطلان ما اعتقده من كونه من أهله فرع على ذلك النهى عن السؤال.

إنى أعظك أن تكون من الجاهلين. أى : أحذرك أن تكون من الجاهلين.

وهنا بادر نوح – عليه السلام – إلى الاعتراف بالخطأ. ف :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾ [هود].

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨) ﴾ [هود].

اهبط بسلام منا. أى: انزل من السفينة إلى الأرض بسلامة وأمن، وبركات عليك أى : نعم ثابتة، وفى هذا الخطاب له دليل على قبول توبته ومغفرة ذلته.

ثم قال الله تعالى لنبينا محمد ﷺ : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩) ﴾ [هود].

نعم العاقبة للمتقين والهلاك والخسران للمنافقين والكافرين.

ومن هذه القصة يتبين لنا بأن الأنساب بغير الإيمان لا تنفع، بدليل قوله تعالى : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ .

قال الإمام الفخر الرازى : « فبين أن قرابة النسب لا تفيد إذا لم تحصل قرابة الدين ».

وفى الحديث الشريف : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم وغيره ».

وفى الحديث أيضا : « إن أولى الناس بى المتقون، من كانوا وحيث كانوا » كما يتضح لنا بأن الكبر والعقوق والاعتصام بغير الله نهايته الخسران والهلاك.

(٤) قوم عاد

«من يشترى تركة عاد منى بدرهمين ؟! » أبو الدرداء رضى الله عنه.

وقعت أحداث هذه القصة على أرض اليمن، بين عمان وحضرموت، فى مكان يسمى : « الأحقاف » – والأحقاف : هى جبال الرمل.

وعلى الأحقاف سكنت قبيلة عاد، آتاهم الله بسطة فى الأجساد والأموال وأمد لهم فى الأعمار، فبنوا القصور الشاهقة والمبانى الفاخرة.

وبدلا من استخدام هذه النعم فى خدمة المنعم – سبحانه وتعالى – استخدموها فى محاربة الله تعالى، وكانوا كما قال تعالى :

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) ﴾ [هود]

فعبدوا الأصنام من دون الله تعالى، وكانوا أول قوم عبدوها بعد قوم نوح – عليه السلام –.

قال الإمام ابن كثير : كانت الأصنام التى عبدوها ثلاثة [صمدا وصمودا وهرا] (البداية والنهاية ج١ ص١٣٨)

فأرسل الله تعالى لهم هودا – عليه السلام – فدعاهم إلى التوحيد قال تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) ﴾ [الأعراف]

ودار هذا الحوار بينه وبين قومه – قال تعالى :

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) ﴾ [الأعراف].

وفى سورة هود دار هذا الحوار بين هود وقومه . قال تعالى :﴿ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) ﴾ [هود].

وفى سورة الشعراء دار هذا الحوار أيضا بين هود - عليه السلام - وبين قومه.

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) ﴾ [الشعراء].

قوله تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) ﴾ [أى : أنكم تبنون بكل مكان مرتفع علما تعبثون ببنيانه وتلعبون بالمارة وتسخرون منهم، لأنكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق فتؤذون المارة وتسخرون منهم، قال أبو عبيدة : الريع الأرتفاع جمعة ريعة، وقال قتادة والضحاك والكلبى : الريع الطريق.

وقال مجاهد : هو الفج بين جبلين، وقال ابن الأعرابى : الريع الصومعة، والريع البرج يكون فى الصحراء، والربع التل العالى.

وقال الكلبى : إنه عبث العشارين بأموال من يمر بهم حكاه الماوردى.

قوله تعالى : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ قال مجاهد وغيره : هى الحصون المشيدة، قال الشوكانى : هى الأبنية التى يتخذها الناس منازل.

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (راجين أن تخلدوا).

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) ﴾ قال مجاهد وغيره: البطش العسف قتلا بالسيف وضربا بالسوط. والمعنى : فعلتهم ذلك ظلما.

وكم من قصور وبيوت تقام فى عصرنا قد تحولت إلى بؤر للفساد، وثكنات للفواحش، يطوف حولها كل داعر، ويدخلها كل فاحش، وصار للرذيلة أماكن مخصصة، ترفع لها أعلام وينشر لها إعلان !!.

الإنتقام :

لما وصل سيدنا هود – عليه السلام – فى دعوتهم إلى طريق مسدود، وقالوا له كما ذكر القرآن :

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) ﴾ [الشعراء].

بدأ انتقام الله تعالى منهم فأحل عليهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين.

يقول الإمام محمد بن إسحاق – رحمه الله – ما مختصره : « فلما أبوا إلا الكفر أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى أجهدهم ذلك فدعوا الله أن ينزل المطر، فأنشأ الله سحابة سوداء. فلما رأوها استبشروا وظنوا أن فيها مطرا، وقالوا: هذا عارض ممطرنا «والعارض هنا : هو السحاب»، فيقول تعالى:

﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ ،

فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك، قال واعتزل هود – عليه السلام – فيما

ذكر لى فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يبين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة أ. هـ.

قال تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات].

قال ابن كثير : « أى التى لا تنتج خيراً ».

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة]

قوله تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ الريح الصرصر هى شديدة البرد وقيل هى شديدة الصوت.

وقوله : ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ العاتية التى عتت عن الطاعة فكأنها عتت على خزانها، فلم تطعهم ولم يقدروا على ردها لشدة هبوبها، أو عتت على عاد، فلم يقدروا على ردها، بل أهلكتهم.

قوله : ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [أى : كوامل متتابعات].

قوله : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ شبههم بأعجاز النخل التى لا رؤوس لها وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس.

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نصرت بالصبا وأهكلت عاد بالدبور».

قال ابن حجر : الصبا يقال لها القبول لأنها تقابل الكعبة لأن مهبها من مشرق الشمس، والدبور ضد الصبا.

ولذلك كان النبى ﷺ إذا عصفت الريح يتغير لونه.

عن عائشة قالت : كان - أى النبى ﷺ إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك فى وجهه. قالت : يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية. فقال : « يا عائشة ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب. قد عذب قوما بالريح. وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا ».

وعن عائشة - رضى الله عنها - أيضا قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به».

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (58) ﴾ [هود].

العاقبة :

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (59) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (60) ﴾ [هود].

يقول الأستاذ عبد السلام محمد بدوى : والأحقاف الآن ... رمال هشة .. شديدة النعومة. يقال أنها تبتلع كل ما يقع فوقها ... ويسمونها منطقة الرمال المتحركة .. بالربع الخالى من المملكة العربية السعودية.

يقول : « وقد ذكر لى بعض من اشترك فى حرب اليمن عام ١٩٦٣ أنه شاهد بنفسه بعض المظليين المصريين .. يهبط فى هذا الربع الخالى .. فابتلعته أمواج الرمال .. كما تبتلع الغريق مياه المحيط ».

ولعل هذه الآثار جزء من اللعنة التى أصابتهم بعد هلاكهم، وصدق ربنا ﴿ وقد خاب من افتري ﴾ فلقد قطع الله أملهم فى الدنيا بالعذاب وفى الآخرة باللعنة.

وقف أبو الدرداء - رضى الله عنه - على منبر دمشق - لما رأى ما أحدث المسلمون فى الغوطة من البنيان ونصب الشجر - قام فى مسجدهم فنادى : « يا أهل دمشق ! فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحيون ؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون مالا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون، قد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون، ويأملون فيطيلون، ويبنون فيوثقون، فأصبح جمعهم بورا، وأملهم غرورا، وبيوتهم قبورا، هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالا وأولادا، فمن يشترى منى تركة آل عاد بدرهمين».

وكأنه رضى الله عنه ينادى فى سمع الزمان، يا من أخلدتم إلى الأرض، وعبدتم الطين، وكنزتم الأموال، وتطاولتم على الكبير المتعال، ونسيتم العقاب والمآل، ولم تسمعوا لصوت ناصح، ولم تنتفعوا بموعظة واعظ، وافسدتم فى الأرض، وبطشتم جبارين، وتوكلتم على سلطانكم وحصونكم اعلموا بأن ربكم لكم بالمرصاد، ولسان الدهر من قبلكم يناديكم أين أصحاب القصور الشاهقة، أين أصحاب البيوت الفارهة، أين من كانوا أشد منكم بطشا، وأكثر منكم أموالا وأولادا، وأقوى بنيانا وأجسادا، ما هو مصيرهم؟ وأين هى بيوتهم؟ هل من معتبر؟ ورحم الله القائل.

سالمتك الليالى فاغتررت بهـا   وعند صفو الليالى يحدث الكدر

(٥) قوم ثمود

قال تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) ﴾ [الشمس].

وقعت أحداث هذه القصة فى مكان يسمى : « الحجر» الذى بين الحجاز وتبوك.

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾ [الحجر].

وكانوا بعد قوم عاد بدليل قوله تعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) ﴾ [الأعراف].

وكانوا من أطول الناس أجسادا وأعمارا - حتى قيل كان الفرد منهم يعيش من الثلاثمائة عام إلى الألف، حتى كان الواحد منهم يبنى بيتا محكما فيهدم البيت قبل أن يموت الذى بناه !! فلما رأوا ذلك عمدوا إلى الجبال فنحتوا منها بيوتا وقصورا.

قال تعالى : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) ﴾ [الفجر].

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) ﴾ [الأعراف]

وكعادة البشر - أكثرهم - عبدوا النعمة وكفروا بالمنعم بل واستخدموا نعم الله تعالى فى محاربة الله.

وفى الأثر : « ابن آدم أقلبك فى نعمتى وأنت تتقلب فى معصيتى احذر أن أصرعك بين معاصيك».

وكانت ثمود تعبد الأصنام من دون الله تعالى، فبعث الله تعالى لهم رجلا منهم وهو سيدنا صالح بن عبيد بن آسف، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد فآمنت به طائفة وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

ودار بين سيدنا صالح وبين قومه هذا الحوار الذى سجله القرآن.

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾ [هود]

وفى مقام آخر. قال الله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا

آمنين ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء].

وفى مقام ثالث. قال الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [القمر].

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح – عليه السلام – فدعاهم إلى الله وذكرهم بأيام الله، وحذرهم من سيف انتقامه فقالوا له : يا صالح : إن دعوت ربك فأخرج لنا من هذه الصخرة – وأشاروا إلى صخرة اختاروها – ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء أى : « مضى لحملها عشرة أشهر» فقال لهم صالح – عليه السلام – أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به، وتصدقونى فيما أرسلت به ؟ قالوا : نعم – فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى لله عز وجل ما قدر له ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء، على الوجه المطلوب الذى طلبوا وعلى الصفة التى نعتوا، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ومنظرا هائلا وقدرة باهرة ودليلا قاطعا وبرهانا ساطعا.

قال الإمام الرازى : واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه :

الأول : « أنه تعالى خلقها من الصخرة ».

الثانى : « أنه تعالى خلقها فى جوف الجبل ثم شق عنها الجبل ».

فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فظلموا بها ﴾ أى جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أى أكثرهم.

قال لهم صالح - عليه السلام - ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) ﴾ [هود] أى دليلا على صدق ماجئتكم به.

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) ﴾ [هود].

وفى مقام آخر . قال لهم صالح - عليه السلام - :

﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) ﴾ [الشعراء].

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم، ويقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا قال :

﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) ﴾ [القمر].

قلت : أى تشرب الناقة ماء البشر فى يوم وتتركه لهم فى يوم، وتحيل الماء الذى شربته إلى لبن يكفى جميع قوم صالح !!.

المؤامرة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) ﴾ [القمر]. والمعنى : أى اختبارا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون والله أعلم بما يفعلون.

﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ [القمر]. والمعنى : أى انتظر ما يكون من أمرهم واصطبر على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية.

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم. واستعجلوا العذاب.

قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) ﴾ [الأعراف].

ذكر ابن جرير والطبرى والألوسى وغير واحد من علماء المفسرين أن امرأتين من ثمود إسم إحداهما : « صدوق » وكانت ذات حسب ومال وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته فدعت ابن عم لها يقال له : « مصرع بن مهرج » وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة، واسم الأخرى : « عنيزة » وكانت عجوزا كافرة، لها بنات من زوجها: « ذؤاب بن عمرو» أحد الرؤساء فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء، فانتدب هذان الشابان لعقرها وسعوا فى قومهم بذلك فاستجاب لهما سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم المذكورون فى قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] وسعوا فى بقية القبيلة وحسنوا لهم عقرها فأجابوهم إلى ذلك.

فانطلقوا يرصدون الناقة فلما صدرت كمن لها مصرع فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يزمرن القبيلة فى قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم فابتدرهم : « قدار بن سالف » فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض، ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ثم طعن فى لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو : «فصيلها» - أى ولدها - فصعد جبلا منيعا ورغا ثلاثا.

ويلاحظ من خلال هذا السياق أن الناقة ولدت فصيلا فى أثناء مدة إقامتها فى وسطهم، وهذا إعجاز آخر.

روى عبد الرزاق عن معمر عمن سمع الحسن أنه قال يارب أين أمى ثم دخل فى صخرة فغاب فيها.

قلت : وهذا إعجاز آخر يضاف للمعجزات السابقة قال القرطبى فى تفسيره « إنه الدابة التى تخرج على الناس فى آخر الزمان}.

قال تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [القمر].

وقال تعالى : ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾ [الشمس].

وعن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلى ألا أحدثك بأشقى

الناس، قال : بلى. قال : رجلان أحدهما أحيمر ثمود الذى عقر: « الناقة والذى يضربك يا على على هذا – يعنى قرنه – حتى تبتل هذه . يعنى : لحيته ».

سمع سيدنا صالح رغاء الفصيل ثلاث مرات فعلم أن الناقة عُقرت فقال :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود].

قال سيدنا صالح لقومه بعد أن عقروا الناقة : انتظروا العذاب بعد ثلاثة أيام بعدد رغاء الفصيل، وأعطاهم ثلاث علامات :

اليوم الأول : تصبح وجوههم مصفر.

اليوم الثانى : نصب وجوههم محمرة.

اليوم الثالث : تصبح وجوههم مسودة.

الإنتقام :

قال سيدنا صالح لهم : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام وبعدها ينزل العذاب فلم يصدقوه.

قال الإمام الرازى فى تفسيره : قال ابن عباس : « أنه تعالى لما أمهلهم تلك الأيام الثلاثة فقد رغبهم فى الإيمان، وذلك لأنهم لما عقروا الناقة أنذرهم صالح – عليه السلام – بنزول العذاب » أ. هـ.

ولكنهم تمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم ودبروا مؤامرة لقتل صالح – عليه السلام – قال تعالى :

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ

﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل].

قوله : ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أى قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله.

﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى لنأتينه بغتة فى وقت البيات، فنقتله وأهله.

﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ المراد بولى صالح : رهطه.

﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أى ماحضرنا قتلهم ولاندرى من قتله وقتل أهله.

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى فيما قلناه.

ولما انطلقوا لتنفيذ المؤامرة أرسل الله عليهم حجارة فأبادتهم وأهلكتهم.

قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النمل].

وأصبحت ثمود فى اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح، وفى اليوم الثانى وجوههم محمرة، وفى اليوم الثالث ووجوههم مسودة، فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق فأصبحوا فى دارهم جاثمين جثثا بلا أرواح منها ولا حراك بها.

قال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود : ٦٨] أى لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء.

وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) ﴾ [فصلت].

ومر عليهم سيدنا صالح، فلما رأى ما أصابهم قال كما قال تعالى :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ [الأعراف].

عن ابن عباس قال : لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال : « يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال وادى عسفان قال : لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق ». (بكرات : جمال ، والخطم : الزمام)

(٦) النمرود بن كنعان

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة].

أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن زيد بن أسلم : « أن أول جبار فى الأرض نمرود ».

وقال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة مؤمنان وكافران. فالمؤمنان ذو القرنين وسليمان. والكافران النمرود وبختنصر.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار : وهذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قاله مجاهد.

وذكروا أن نمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغا وبغا وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا.

حكم هذا الطاغية شعبه بالحديد والنار، وكان عابدا للأصنام، ثم دعا الناس إلى عبادته وادعى الألوهية !!

نام هذا النمرود ليلة فرأى كأن كوكبا طلع فى السماء فذهب ضوء الشمس حتى لم يبق لها ضوء، ففزع من ذلك فزعا شديدا، ودعا الكهنة والمنجمين لتأويل رؤياه. فقالوا : سيولد ناحيتك هذا العام غلام يكون هلاكك على يديه، فأمر بذبح كل غلام يولد فى تلك الناحية هذه السنة.

كانت أم إبراهيم عليه السلام قد حملت بإبراهيم، فلما اقتربت ولادتها وأجاءها المخاض، خرجت هاربة، فوضعته فى نهر جاف وذهب أبوه ووضعه فى سرداب وجعل رزقه فى أطراف أصابعه فكان يمصها.

وكانت أمه تتعهده - خلسة بين الحين والحين.. حتى كبر ونما .. وكان على سنة كأنه ابن ثلاث سنين .. فلما خرج من السرب .. توهمه الناس .. وكأنه ولد منذ سنين.

وجاء فى تفسير القرطبى : قال لأمه - أى إبراهيم - عليه السلام - : « من ربى ؟ فقالت : أنا .. قال : ومن ربك ؟ قالت : أبوك .. قال : ومن رب أبى ؟ .. قالت : نمرود. قال : ومن رب نمرود ؟ فلطمته - وعلمت أنه الذى يذهب ملكهم على يديه.

ومصداق ذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) ﴾ [الأنبياء].

قال الشوكانى - رحمه الله - قال الفراء : المعنى أعطيناه هداه من قبل النبوة : أى وفقناه للنظر والاستدلال .. وعلى هذا أكثر المفسرين.

وبدأ إبراهيم - عليه السلام - يواجه قومه بالحق ويبين لهم أنه لا معبود بحق سواه، فلا للأنداد ولا للشركاء، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

واقتطف لك عزيزى القارئ بعضا من هذه المواقف :

(١) الحوار الأول : كان بينه وبين أبيه آزر :

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا

أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم].

(٢) الحوار الثاني : وكان بينه وبين قومه :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا

ولايَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ [الأنبياء].

والمعنى : «أن إبراهيم – عليه السلام – بعد أن أقام على قوم الحجة وبين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام قال :

﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧)﴾

قال ابن كثير : قيل إنه قال هذا خفية فى نفسه وقال ابن مسعود سمعه بعضهم.

وكان لهم عيد يذهبون إليه فى كل عام مرة إلى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال إنى سقيم كما قال تعالى :

﴿فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم﴾

عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق فى بطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة. فلما خرجوا إلى عيدهم واستقروا فى بلدهم « راغ إلى آلهتهم » أى ذهب إليها مسرعا مستخفيا فوجدها فى بهو عظيم وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانا إليها (فقال) لها على سبيل التهكم والإزدراء:

﴿ألا تأكلون . ما لكمن لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين﴾ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم فى يده.

كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ أى حطاما كسرها كلها: ﴿ إِلاَّ كَبِيـرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ قيل إنه وضع القدوم فى يد الكبير - وفى الطبرى فريط الفأس بيده (أى فى يد الصنم الكبير) إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار. فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم :

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) ﴾ وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التى كانوا يعبدونها فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم :

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) ﴾ [أى يذكرها بالعيب والتنقص لها فهو الكاسر لها. وعلى قول ابن مسعود أى يذكرهم بقوله :

﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) ﴾ .

المحاكمة :

﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) ﴾ [الأنبياء].

أى : فى الملأ الكبير على رؤوس الأشهاد لعلهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه، وكان هذا أكبر مقاصد إبراهيم - عليه السلام - أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه، فلما اجتمعوا وجاء كما ذكروا :

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الأنبياء]

أى قال إبراهيم ساخرا منهم : إن هذا الكبير، الصنم الكبير، غضب من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرها، وقيل معناه هو الحامل لى على تكسيرها وإنما عرض لهم فى القول :

﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء].

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [أى فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا إنكم أنتم الظالمون أى فى تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها.

قال الأستاذ/ سيد قطب : « ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزا، وردهم إلى شىء من التدبر والتفكر... ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود

﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾

وحقا لقد كانت الأولى رجعة إلى النفوس، وكانت الثانية نكسة على الرؤوس.. وإلا فإن قولهم هذا الأخير هو الحجة عليهم. وأية حجة لإبراهيم أقوى من أن هؤلاء لا ينطقون ؟! أ. هـ.

قال السدى : أى ثم رجعوا إلى الفتنة. قال ابن كثير فعلى هذا يكون قوله إنكم أنتم الظالمون. أى : فى عبادتها.

وقول السدى هذا يؤيد ما ذهب إليه الأستاذ/ سيد قطب فى تفسيره.

عند ذلك قال إبراهيم – عليه السلام :

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ [الأنبياء].

عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلا استعمال قوتهم وسلطانهم - وذلك لما أعيتهم الحيلة فيه ووجدت موعظته منهم قلوبا غلفا وآذانا صما.

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبا من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت وعلالها شرر لم ير مثله قط. ثم وضعوا إبراهيم - عليه السلام - فى كفة منجنيق صنعه لهم رجل يقال له: «هيزن» وكان أول من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

فلما وضع الخليل - عليه السلام - فى كفة المنجنيق مقيدا مكتوفا ثم ألقوه إلى النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل كما روى البخارى عن ابن عباس أنه قال حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى فى النار وقالها محمد - ﷺ - حين قيل له:

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ [آل عمران]

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لما جُمع لإبراهيم ما جمع، وألقى فى النار جعل خازن المطر يقول : متى أومر بالمطر فأرسله ؟ فكان أمر الله أسرع، قال الله « كونى بردا وسلاما » فلم يبق فى الأرض نار إلا طفئت.

وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال « لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ».

وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن كعب قال : ما أحرقت النار من إبراهيم ولا وثاقه.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن المنهال ابن عمرو قال : أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار، فكان فيها إما خمسين وإما أربعين، قال : ماكنت أياما وليالى قط أطيب عيشا إذ كنت فيها، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذا كانت فيها.

وقال الضحاك يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شىء غيره. وقال السدى : كان معه أيضا ملك الظل. وصار إبراهيم – عليه السلام – فى ميل الحفرة حوله النار وهو فى روضة خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ولا هو يخرج إليهم.

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : «أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال نعم الرب ربك يا إبراهيم ».

عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : « اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم » فكانت عائشة تقتلهن.

مناظرة إبراهيم الخليل مع النمرود :

ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ولم يكن اجتمع به فكانت بينهما هذه المناظرة.

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة].

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ قال الفراء : بمعنى هل رأيت أى : هل رأيت الذى حاج إبراهيم وهو النمرود بن كوش بن كنعان.

وقوله : ﴿ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ قال الإمام الطبرى : «الذى حاج إبراهيم » يعنى : الذى خاصم.

وقوله : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ أى لأن آتاه الله، أو من أجل أن آتاه الله الملك، على معنى أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر والعتو، فحاج لذلك.

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

قال الطبرى : يعنى بذلك ربى الذى بيده الحياة والموت يُحيى من يشاء ويميت من أراد بعد الإحياء.

قال النمرود : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ أى قال : أنا أفعل ذلك، فأحيى وأميت، أستحيى من أردت قتله فلا أقتله، فيكون ذلك منى إحياء له، وأقتل آخر، فيكون ذلك منى إماته له».

وقال الشوكانى : أراد إبراهيم – عليه السلام – أن الله هو الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد، وأراد الكافر أنه يقدر أن يعفو عن القتل فيكون ذلك إحياء، وعلى أن يقتل فيكون ذلك إماتة، فكان هذا جوابا أحمق لا يصح نصبه فى مقابلة حجة إبراهيم، لأنه أراد غير ما أراد الكافر، فلو قال له : ربه الذى يخلق الحياة والموت فى الأجساد فهل تقدر على ذلك؟ لبهت الذى كفر بادئ ذى

بدء وفى أول وهله، ولكنه انتقل معه إلى حجة أخرى تنفيسا لخناقه، وإرسالا لعنان المناظرة.

قال ابن جريج : كان قد أتى برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر فقال أنا أحيى وأميت.

قال إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ لكون هذه الحجة لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للكافر أن يخرج منها بمخرج مكابرة ومشاغبة.

قوله : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ يعنى : وقعت عليه الحجة أى انقطع وسكت متحيرا.

قوله : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : والله لا يهدى أهل الكفر إلى حجة يدحضون بها حجة أهل الحق عند المحاجة والمخاصمة، لأن أهل الباطل حججهم داحضة، قال محمد بن إسحاق : أى لا يهديهم فى الحجة عند الخصومة، لما هم عليه من الضلالة.

نهاية الطاغية :

أخرج عبدالرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن زيد بن أسلم : « أن أول جبار كان فى الأرض نمرود، وكان الناس يخرجون يمتارون من عنده الطعام، فخرج إبراهيم - عليه السلام - يمتار مع من يمتار، فإذا مر به ناس قال : من ربكم ؟ قالوا: أنت، حتى مر به إبراهيم، فقال : من ربك ؟ قال : الذى يحيى ويميت، قال : أنا أحيى وأميت، قال : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فبهت الذى كفر، فرده بغير طعام.

فرجع إبراهيم إلى أهله فمرَّ على كثيب من رحل أصفر فقال : ألا آخذ من هذا فآتى به أهلى، فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم، فأخذ منه فأتى أهله فوضع متاعه ثم نام، فقامت امرأته إلى متاعه فتحته فإذا هى بأجود طعام رآه أحد، فصنعت له منه فقربته إليه، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام، فقال : من أين هذا؟ قالت : من الطعام الذى جئت به، فعرف أن الله رزقه فحمد الله.

ثم بعث الله إلى الجبار ملكا أن آمن وأتركك على ملكك. قال : فهل رب غيرى ؟ فجاءه الثانية فقال له ذلك فأبى عليه، ثم أتاه الثالثة فأبى عليه، قال له الملك : فأجمع جموعك إلى ثلاثة أيام، فجمع الجبار جموعه فأمر الله الملك ففتح عليه بابا من البعوض وطلعت الشمس فلم يروها من كثرتها، فبعثها الله عليهم فأكلت شحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلا العظام، والملك كما هو لا يصيبه من ذلك شىء.... فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق (وقيل بالنعال)، وأرحم الناس به من جمع يديه ثم ضرب بها رأسه، وكان جبارا أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله، وهو الذى كان بنى صرحا إلى السماء فأتى الله بنيانه من القواعد.

فهل رأيت أخى القارئ إلها يضرب بالنعال ؟!

صدق ربنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [المجادلة].

وإن الناظر الحصيف ليرى من خلال صفحات التاريخ أن مآل كل متكبر، ونهاية كل متغطرس، ومصارع الظالمين عبر التاريخ. فيها من العبر والعظات، ما يدل على أن العزة بيد الله وحده، والملك له وحده، وأن المهانة والذل لمن تعالى عليه سبحانه، وتطاول على آياته ورسله :

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الجاثية].

(٧) قوم لوط

قال تعالى :

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾ [النجم].

سكن قوم لوط فى مدينة سدوم وما حولها من القرى بالأرض بطريق الشام مكان البحر الميت الآن، وكانوا من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة يقطعون السبيل، ويأتون فى ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن المنكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من الإناث لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط - عليه السلام - إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات، والفواحش والمنكرات، والأفاعيل المستقبحات، فتمادوا فى ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذى لا يرد ما لم يكن فى خلدهم وحياتهم، وجعلهم مُثْلة فى العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباءمن العالمين ولهذا ذكر الله تعالى - قصتهم فى كتابه المبين.

قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل].

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣)

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾ [الشعراء].

وأثبتت الروايات أن الفساد والانحلال وكل ماهو خبيث تغلب على سلوكهم وأحوالهم رجالهم وشبابهم، وشيوخهم وأطفالهم ونساءهم.

وسيدنا لوط هو لوط بن هاران بن تارخ -آزر- وعلى ذلك فسيدنا إبراهيم عمه- آمن لوط -عليه السلام- بعمه وهاجر معه من بابل إلى الشام وسكن سدوم وعمورة.

قال ابن عباس : «عشر خصال من أعمال قوم لوط : تصفيف الشعر، وحل الإزار، ورمى البندق، والخذف بالحصى، واللعب بالحمام الطيارة، والصفير بالأصابع، وفرقعة الأكعب، وإسبال الإزار، وحل أزر الأقبية، وإدمان شرب الخمر، وإتيان الذكور، وستزيد عليها هذه الأمة مساحقة النساء للنساء[1].

وروى أن قوم لوط فيهم عشر خصال أهلكوا بها: «كانوا يتغوطون فى الطرقات وتحت الأشجار المثمرة وفى شطوط الأنهار، ويرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا، وإخراج الريح بينهم، واللطم على الرقاب، ويحذفون الناس بالحصى (فيجرحونهم)، ويظهرون المنكر فى مجالسهم. ويأتون بالطامة الكبرى وهو اللواط».

وروى أن من أعمال قوم لوط : «اللعب بالنرد (الطاولة) والمسابقة بالحمام، والمهارشة بين الكلاب، والمناطحة بين الكباش، والمناقرة بالديوك، ودخول الحمام بلا مئزر، ونقص الكيل والميزان، ويل لمن فعلها » (الكبائر : ص٢٢٧)

---

(١) الكبائر للذهبى.

وقال بعض العلماء : وقد توجد هذه الأمور فى بعض عصاة أمة محمد ولهذا وجب التناهى عنها.. فقد قال (مكحول) : فى هذه الأمة عشرة من أخلاق قوم لوط. مضغ العلك : « اللبان »، وتطريف الأصابع بالحناء، وحل الإزار، وتنقيض الأصابع : (فرقعتها)، والعمامة التى تلف حول الرأس[1]، والتشابك، ورومى الجلاهى : (الحصى)، والصفير، والخذف، واللوطية.

خطورة اللواط :

(١) عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين ويدخلهم النار - فى أول الداخلين - إلا أن يتوبوا، ومن تاب تاب الله عليه : الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنه الناس، والناكح حليلة جاره ». (رواه أبو الشيخ والديملى والغربالى وحسنه الشيخ الغمارى في الاستقصاء ص٣٦ ، انظر الكبائر ص٢٢٧)

(٢) وفى الحديث الشريف : «لا ينظر الله - عز وجل - إلى رجل أتى رجلا، أو امرأة فى دبرها» رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه.

(٣) عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أخوف ما أخاف على أمتى، عمل قوم لوط ». (رواه أحمد فى المسند - صحيح الجامع /٥٨٩١)

وما خاف منه النبى ﷺ وقع فى أمته، نسأل الله تعالى النجاة.

(٤) وعن ابن عباس -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ملعون من سب أباه، ملعون من سب أمه، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من غير تخوم الأرض، ملعون من كمه أعمى عن طريق، ملعون من وقع على بهيمة، ملعون من عمل بعمل قوم لوط». (رواه أحمد فى المسند- صحيح الجامع/ ١٥٥٢)

---

(١) كانوا يلفونها بطريقة تدعوا إلي المبدعة وإلا فهي سنة، ولكن على غير طريقة قوم لوط.

(٥) وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «خمس بخمس، قالوا : يا رسول الله وما خمس بخمس ؟ قال : ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت الفاحشة : وفى رواية فى قوم حتى أعلنوا بها إلا أنزل الله بهم الطاعون -يعنى كثرة الموت-، ولا طففوا الكيل إلا ضعوا النبات وأُخذوا بالسنين "الجوع"، ولا متعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر ». (الطبرانى فى الكبير)

(٦) عن ابن عمر قال : أقبل رسول الله ﷺ فقال : «يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم ». (ابن ماجة وأبو نعيم فى الحلية والحاكم، وقال صحيح الاسناد ووافقه الذهبى، وقال الألبانى حديث حسن الصحيحة ص١٠٦)

(٧) قال مجاهد - رضى الله عنه - : « لو أن الذى عمل عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة من الأرض وبكل قطرة من السماء لم يزل نجسا ». (الحاكم المضبوط في تحريم فعل قوم لوط ص٩٢)

(٨) قال الحسن بن ذكوان : « لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صورا كصور العذارى فهم أشد فتنة من النساء ». (الكبائر ص٦١)

(٩) ودخل سفيان الثورى الحمام فدخل عليه صبى حسن الوجه، فقال :

«أخرجوه عنى فإنى أرى مع كل امرأة شيطانا، وأرى مع كل صبى حسن بضعة عشر شيطانا». (الكبائر ص٦٢ ، والزواجر ص١٤١ ج٢)

(١٠) وروى أنه إذا ركب الذكر الذكر اهتز عرش الرحمن خوفا من غضب الله تعالى، وتكاد السموات أن تقع على الأرض فتمسك الملائكة بأطرافها وتقرأ: ﴿قل هو الله أحد﴾ إلى آخرها حتى يسكن غضب الله عز وجل. (الكبائر ص٦٠)

(١١) وقد أباح عبد الله بن المبارك - رحمه الله - للغلام إذا أريدت منه الفاحشة فلا يخلصه إلا القتل أن يقتل من يراوده.

قال ابن القيم : « هذا هو الذى تقتضيه السنة لأنه إذا جاز له المقاتلة دون درهم من ماله وقتل من كابده عليه فقتله لمن كابده على نفسه أولى وإن أفضى إلى قتله. (الحاكم المضبوط ص٩٥)

(١٢) وقال سعيد بن المسيب - رحمه الله - : « إذا رأيتم الرجل يلح فى النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه ». (المرجع السابق ص٩٢)

(١٣) قال بعض السلف : « إذا سقط العبد من عين الله تعالى ابتلاه بمحبة المردان وهذه المحبة التى جلبت على قوم لوط - عليه السلام - ما جلبت ولا أوتوا إلا من هذا العشق. قال تعالى :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾ [الحجر].

نهاية الخبثاء :

وما كان الله تعالى ليدع هؤلاء الخبثاء هكذا، يقضون على الفضائل، ويدمرون القيم، دون أن يرسل عليهم سهام نقمته وشدة عذابه، حاشاه فـ : « إن الله يغار إذا انتهكت محارمه».

يقول ابن القيم : « وهو سبحانه وتعالى قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم ... على رؤوس الملأ منهم والأشهاد، وصاح بها بين أظهرهم فى كل حاضر وباد. وقال فكان فى قوله لهم من أعظم الناصحين :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الأعراف].

ثم أعاد لهم القول نصحا وتحذيرا، وهم فى سكرة عشقهم لا يعقلون :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) ﴾ [الأعراف].

فأجاب العشاق جواب من أركس فى هواه وغيه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل].

فلما أن حان الوقت المعلوم وجاء ميقات نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرحمن تبارك وتعالى لتمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوط ملائكة فى صورة البشر، وأجمل ما يكون من الصور، وجاءوه فى صورة الأضياف النزول بذى الصدر الرحيب – ولكنه كما قال القرآن :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) ﴾ [هود]

وجاء الصريخ إلى اللوطية أن لوطا قد نزل به شباب لم ينظر إلى مثل حسنها وجمالهم الناظرون، ولا رأى مثلهم الراؤون، فنادى اللوطية بعضهم بعضا أن هلموا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات، ونيل أكبر اللذات :

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .... (٧٨) ﴾ [هود].

فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهم والغم وقلبه بالحزن عميد :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود].

فلما سمع اللوطية مقاله أجابوه جواب الفاجر المجاهد العنيد :

﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) ﴾ [هود].

فقال لهم لوط مقالة المضطهد الوحيد:

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) ﴾ [هود].

فلما رأت رسل الله ما يقاسى نبيه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال وقالوا : هون عليك :

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ...(٨١) ﴾ [هود].

فسر نبى الله سرور المحب حيث وافاه لفرج بغتة على يد الحبيب، وقيل له:

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

ولما أبوا إلا مراودته عن أضيافه ولم يرعوا حق الجار ضرب جبريل بجناحه على وجوههم فطمس منهم الأعين وأعمى الأبصار فخرجوا من عنده عميانا يتحسسون ويقولون : ستعلم غدا ما يحل بك أيها المجنون.

فلما انشق عمود الصبح جاء النداء من عند رب الأرباب أن اخسف بالأمة اللوطية وأذقهم أليم العذاب، فاقتلع القوى الأمين جبريل مدائنهم على ريشة من جناحه ورفعها فى الجو حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها واتبعوا بحجارة من سجيل وهو الطين المستمر الشديد، وخوف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد

فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود].

كلام نفيس لابن القيم رحمه الله :

قال رحمه الله : « قالوا : وكم أكبت فتنة الفسق رؤوسا على مناخرها فى الجحيم، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم، وجرعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين، كخروج الشعرة من العجين، وكم أزالت من نعمة، وأحلت من نقمة، وكم أنزلت مع معقل عزه عزيزا فإذا هو من الأذلين، ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب فإذا هو فى أسفل السافلين، وكم كشفت من عورة، وأحدثت من روعة، وأعقبت من ألم، وأحلت من ندم، وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد، وأذهبت قدرا كان للعبد

عند الله وفى قلوب العباد، وكم جلبت من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، فقل أن يفارقها زوال نعمة، أو فجاءة نقمة، أو تحويل عافية، أو طروق بلية، أو حدوث رزية، فلو سألت النعم ما الذى أزالك ؟ والنقم ما الذى أدلك؟ والهموم والأحزان ما الذى جلبك؟ والعافية ما الذى أبعدك وجنبك ؟ والستر ما الذى كشفك ؟ وشمس الإيمان ما الذى كورك؟ والوجه ما الذى أذهب نورك وكشفك ؟ والحياة ما الذى كدرك ؟ وعزة النفس ما الذى أذلك، وبالهوان بعد الإكرام بدلك؟ لأجابتك بلسان الحال اعتبارا، إن لم تجب بالمقال حوارا : هذه والله بعض جنايات العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون :

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) ﴾ [النمل].

عظة المكان :

وشاءت إرادة الله تعالى ، وحكمته، أن يترك لنا مكان قرى لوط إلى يومنا هذا - وهو المكان المسمى بالبحر الميت عظة لنا، فافتضحوا بذلك فضيحة لا يغطيها ذيل ولا يسترها ليل :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) ﴾ [الحجر].

أى : لعلامات للمتفكرين الناظرين وقال قتادة : للمعتبرين - أى عظة لمن يأتى من بعدهم قال تعالى :

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر].

قال الشوكانى : يعنى قرى قوم لوط ... على طريق ثابت وهى الطريق من المدينة إلى الشام فإن السالك فى هذه الطريق يمر بتلك القرى.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الحجر]

أى : هذه القرى وآثارها يعتبر بها أهل الإيمان فإن المؤمنين من العباد هم الذين يعتبرون بما يشاهدونه من الآثار. فثبت بذلك أن الله تعالى أبقى أماكنهم للعظة والاعتبار، موعظة للمتقين وإنذارا للمجرمين.

فقد قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود].

أى : وما هى "أى الحجارة" من كل ظالم من الظلمة ببعيد، فهم لظلمهم مستحقون لها، وقال السدى : من ظلمة العرب إن لم يؤمنوا فيعذبوا بها، وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبى حاتم عن قتادة قال : من ظالمى هذه الأمة، فهذا إنذار لكل فاحش أن يهلكه الله وينتقم منه وأثبت الطب حديثا أن فاحشة اللواط تصيب مرتكبها بأمراض خبيثة كالإيدز وغيره وصدق النبى - عليه الصلاة والسلام - : «لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا ».

حكم الإسلام فيمن يعمل عمل قوم لوط :

لما كان اللواط أكثر إثما وأقبح، وكانت مفسدته من أعظم المفاسد، كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات وهو أعظم عند الله من الزنا بالنساء.

قال ابن القيم - رحمه الله - : « لم يبتل الله سبحانه وتعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدا من العالمين وعاقبهم عقوبة لم يعاقبها أحدا غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم

ورجمهم بالحجارة من السماء فنكل بهم نكالا لم ينكله بأمة سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض أن تميد من جوانبها إذا عملت عليها وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتضرع الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن مكانها. أ. هـ ».

عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- : « أنه وجد رجلا فى بعض نواحى المدينة ينكح كما تنكح المرأة فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله ﷺ منهم على بن أبى طالب -رضى الله عنه- فقال علىّ إن هذا ذنب لم تعمل به أمة إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمتم أرى أن يحرقه بالنار فأجمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ (أى على ذلك).

ونقل عن أبى عبد الله بن الحاج - رحمه الله - قال : (وعقوبة اللائط عندنا حدا كالزنى مائة جلدة إن كان غير محصن والرجم إن كان محصنا، وقيل عقوبة اللائط أن يلقى من شاهق وترمى عليه الحجارة كما عذب الله قوم لوط وهذا قول ابن عباس - رضى الله عنهما-).

والذى نص على رجم اللائط من الأئمة الشافعى وأحمد وطائفة قالوا : بأن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا، واحتجوا بحديث : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ».

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، ولقوله تعالى: ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

ومن أجل ذلك سد الإسلام المنافذ وأغلق الأبواب التى قد تؤدى إلى ارتكاب مثل هذه الفاحشة النكراء فمن ذلك :

(١) عن أبى ريحانة - رضى الله عنه - قال : « نهى رسول الله ﷺ عن مكامعة الرجل الرجل بغير شعار ومكامعة المرأة المرأة بغير شعار».

وفى رواية : «مكاعمة» بدلا من : «مكامعة» أى بتقديم العين على الميم. والمكامعة (بتقديم الميم على العين) أى المضاجعة، يقال لزوج المرأة : هو كميعها أى : ضجيعها، أى المكاعمة (بتقديم العين على الميم) فهو تقبيل فم الغير، أخذ من كعام البعير، وهو أنه يشد فمه : إذا هاج حتى لا يعض، قول : بغير شعار : أى بلا حاجب من ثوب.

ومن هذا الحديث يتبين لنا أن الإسلام نهى الرجال أن يقبل أحدهما الآخر فى فمه وهو ما يحدث كثيرا فى عصرنا، وكذلك نهى النساء أن تقبل إحداهن الأخرى فى فمها، كما لا يجوز للمرأتين أن يتجردا تحت ثوب واحد إن كانت إحداهن بجوار الأخرى على فراش واحد، وكذلك الرجال.

(٢) وفى الحديث الشريف : « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى الثوب الواحد ولا المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد ».

(٨) قوم مدين

إلى الذين ماتت ضمائرهم وخربت ذممهم، ونهبوا حقوق غيرهم وأفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها أقدم مصارع قوم قادتهم شهواتهم وعبدوا شجرة من دون الله تعالى !. وهم قوم مدين للعظة والاعتبار.

سكن قوم شعيب بأرض مدين بالشام قرب قرى لوط.

وكانوا يعبدون : « الأيكة » من دون الله. قال تعالى :

﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾.

وكانوا من أسوأ الناس معاملة « يبخسون المكيال » يشترون بالزائد ويبيعون بالناقص، وينهبون أموال الناس بقطع الطريق عليهم.

فأرسل الله لهم : « سيدنا شعيب » وكان يلقب بخطيب الأنبياء.

فدعاهم إلى توحيد الله تعالى وإلى ترك ما يفعلونه من المنكرات، وسجل القرآن ما دار بين سيدنا شعيب - عليه السلام - وبين قومه فمن ذلك.

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا

مَعَكَ من قَرْيَتنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي ملَّتنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَد افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّه كَذبًا إنْ عُدْنَا في ملَّتكُم بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ منْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فيهَا إلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ علْمًا عَلَى اللَّه تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمنَا بالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتحينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذينَ كَفَرُوا من قَوْمه لَئن اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إنَّكُمْ إذًا لَّخَاسرُونَ (٩٠)﴾ [الأعراف].

وفي سورة هود : «دار هذا الحوار بين شعيب – عليه السلام – وقومه»

قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مّنْ إلَه غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمكْيَالَ وَالْميزَانَ إنّي أَرَاكُم بخَيْرٍ وَإنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْم أَوْفُوا الْمكْيَالَ وَالْميزَانَ بالْقسْط وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا في الأَرْض مُفْسدينَ (٨٥) بَقيَّتُ اللَّه خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُم مُّؤْمنينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بحَفيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ في أَمْوَالنَا مَا نَشَاءُ إنَّكَ لأَنتَ الْحَليمُ الرَّشيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْم أَرَأَيْتُمْ إن كُنتُ عَلَىٰ بَيّنَةٍ مّن رَّبّي وَرَزَقَني منْهُ رزْقًا حَسَنًا وَمَا أُريدُ أَنْ أُخَالفَكُمْ إلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إنْ أُريدُ إلاَّ الإصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفيقي إلاَّ باللَّه عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وَإلَيْه أُنيبُ (٨٨) وَيَا قَوْم لا يَجْرمَنَّكُمْ شقَاقي أَن يُصيبَكُم مّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مّنكُم ببَعيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْه إنَّ رَبّي رَحيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثيرًا مّمَّا تَقُولُ وَإنَّا لَنَرَاكَ فينَا ضَعيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بعَزيزٍ (٩١) قَالَ

يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ الـــلَّه وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيـطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيـهِ عَذَابٌ يُخْزِيـهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيـبٌ (٩٣) ﴾ [هود]

قوله : ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ أى : بثروة وسعة وفى الرزق فلا تغيروا نعمة الله عليكم بمعصيته والإضرار بعباده، ففى هذه النعمة ما يغنيكم عن أخذ أموال الناس بغير حقها.

قوله : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : ما يبقيه لكم من الحلال بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر خيرا وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد فى الأرض.

وظل سيدنا شعيب يذكرهم بنعم الله وآلائه، ويحذرهم شدة بأسه وقوة سطوته وهم ينأون عنه وينهون عنه، ويسخرون منه، بل واستعجلوا عذاب الله، مع إصرار عجيب على إرتكاب المعاصى، ونهب الأموال، والتطفيف فى المكيال.

قال تعالى عن قوم شعيب :

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِيـــــــنَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) ﴾ [الأعراف].

وفى مقام آخر قالوا له :

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) ﴾ [الشعراء].

وهنا بدأ انتقام الله تعالى منهم :

فحبس الله عنه الهواء سبعة أيام فهربوا من بيوتهم وخرجوا يجتمعون بإلههم « الأيكة » يستظلون بظلها، ويطلبون منها النصرة، فأرسل الله عليهم سحابة أظلتهم، فظنوا أن فيها خيرا « كما فعل بقوم صالح - عليه السلام » ودنت منهم فظنوا بأن الخير قريب، فإذا بصيحة من السماء ورجفة من الأرض، وأمطرت السحابة عليهم نارا وشررا كما قال تعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء].

﴿ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ ماتوا من الفزع والحرق وهم جلوس على ركبهم.

قال ابن كثير : « وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات، وصنوفا من المثلات، وأشكالا من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة اسكتت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم فيها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

والواضح أن الله سلط عليهم الظلة كما ذكرنا فى سورة الشعراء، وسلط عليهم الرجفة التى زلزلت الأرض من تحت أقدامهم كما فى سورة الأعراف حيث قال تعالى:

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) ﴾ [الأعراف].

وأرسل الله تعالى عليهم صيحة فأخمدت الأصوات كما ذكر الله تعالى حيث يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) ﴾ [هود].

وفى هذا إنذار لكل غشاش باع ضميره بعد أن باع دينه، تأملوا كيف يفعل الغش بأهله، وكيف تفعل الخيانة بأهلها لعل الضمائر أن تصحوا من بعد غفوتها، وتعود إلى رحاب الله. وتوقن بأن الله تعالى لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، وأنه سبحانه بالمرصاد لكل منحرف.

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود].

قوله : ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أى : يعيشوا فيها قبل ذلك.

وبعد أن أصابهم ما أصابهم، مر عليهم شعيب - عليه السلام - ، فلما رأى حالهم قال مقرعا لهم وموبخا :

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير : « أى أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به ».

التحذير من الغش والترغيب فى القناعة والرضا :

(١) قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① ﴾ يعنى : الذين ينقصون الناس ويبخسون حقوقهم فى الكيل والميزان.

قوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② ﴾ [المطففين] يعنى : يستوفون حقوقهم منها قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ ﴾ [المطففين] أى : ينقصون فى الكيل والوزن.

﴿ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ④ ﴾ قال الزجاج: المعنى لو ظنوا أنهم مبعوثون ما نقصوا فى الكيل والوزن .

﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ ﴾ أى : يوم القيامة.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥ ﴾ أى : من قبورهم للحساب.

(٢) وقال نافع : كان ابن عمر يمر بالبائع فيقول : اتق الله وأوف الكيل والوزن، فإن المطففين يوقفون حتى إن العزق ليُلجمهم إلى إنصاف آذانهم. وكذا التاجر إذا شد يده فى الذراع وقت البيع وأرخى وقت الشراء.

(٣) وكان بعض السلف يقول : ويل لمن يبيع بحبة يعطيها ناقصة جنة عرضها السماوات والأرض، وويح لمن يشترى الويل بحبة يأخذها زائدة ».

وشدد بعضهم فى هذا الأمر، فلقد حكى ابن عبد السلام أن غصب الحبة وسرقتها كبيرة بالإجماع أقول : ولا تنظر أخى القارئ إلى صغر الحبة وقلة وزنها وتفاهة سعرها ولكن انظر إلى القلب الفاسد الذى حرك صاحبه لسرقتها، وفى هذا استخفاف بنظر الله تعالى للعبد نعوذ بالله من ذلك. ولذلك قال بلال بن

سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت. وفى الحديث الصحيح : « من غشنا فليس منا ».

(٤) عن فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أفلح من هدى للإسلام، وكان عيشه كفافا وقنع به ».

أقول : وسف الرماد خير من أكل الحرام ونهب الناس، بل إن أكل الحلال أفضل من صيام التطوع وصلاة التطوع. قال إبراهيم بن آدهم : «أطب مطعمك ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار». يقصد صيام النافلة

(٩) فرعون ‹ الإله الغريق ›

وهذا نموذج آخر من الطغاة الذين تسلطوا بالظلم على العباد وتطاولوا على رب الأرباب، فتعالوا لنرى مصارع الظالمين، ولنرى أن الحمق يؤدى بصاحبه إلى الهاوية:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النازعات].

كان فرعون حاكما على مصر، ووصل به الغرور أن دعا الناس إلى عبادته من دون الله تعالى ، قال تعالى :

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات].

قال الإمام السدى عن ابن عباس وغيره من الصحابة : «أن فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقتها وأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل، فدعا الكهنة والمعبرين للرؤى، فقالوا : يولد في بنى إسرائيل غلام : يسلبك الملك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك وقد أظلك زمانه الذي يولد فيه ».

فأمر فرعون « القوابل » أن يخبرن عن كل امرأة حامل أو وضعت حملها، فإن كان ذكرا قتل، قال صاحب الكشاف والقرطبي : « إن فرعون ذبح فى طلب موسى تسعين ألف وليد !!».

وحملت أم موسى : « وكانت تسمى يوكابد » بموسى – عليه السلام –.

قال ابن كثير : « ولم يكن يظهر عليها مخايل الحمل»، فلما جاءها ألم المخاض، اقتربت من إحدى القوابل وكانت تحبها، فأخبرتها فعالجتها القابلة حتى وضعت حملها، ورأت القابلة هالة من النور على وجه موسي، فقالت لها : احفظيه من أعين رجال فرعون.

وكان الله تعالى قد وضع عليه محبة من عنده فلا يراه أحد إلا أحبه كما قال تعالى :

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه].

وهكذا أمضى الله أمره :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾[يوسف]

ولا يغنى حذر من قدر، ونجا الله موسى - عليه السلام - ليقضى أمرا كان مفعولا.

وأوحى الله إلى أم موسى وحى إلهام :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) ﴾ [القصص].

والظاهر أن بيت أم موسى كان يطل على النيل، فصنعت لموسى صندوقا مغلقا ووضعت فيه موسى وألقته فى النيل، وربطته بحبل إلى أحد الأشجار وبين الحين والحين تأخذه من الصندوق ثم ترضعه ثم تعيده في الصندوق ثانية، وفى إحدي المرات أرضعته ثم ألقته فى الصندوق ثم نسيت أن توثق الصندوق إلى الشجرة، وانطلق الصندوق يشق عباب الماء، وساقه القدر إلى قصر فرعون، ورأته بعض جوارى قصر فرعون، فأخذوا الصندوق وهابوا أن يفتحوه، وحملوه إلى السيدة «آسية بنت مزاحم» زوجة فرعون، فعالجت الصندوق ففتحته ورأت موسى بداخله وسرعان ما دخل حبه قلبها، فحملته إلى فرعون وقالت :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص].

وشاءت إرادة الله تعالى أن يربى موسى فى قصر فرعون، وفرعون يبحث عن عدوه خارج قصره !! قال تعالى :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

وعلمت أم موسى بأن ولدها وصل إلى قصر فرعون فطاش عقلها وكادت تفصح عن نفسها وولدها، قال تعالى :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص].

وعرضت السيدة آسية موسى على كثير من المرضعات ولكنه رفض أن يلتقم ثدى إحداهن، فلقد حرم الله تعالى عليه المراضع، ليعود إلى أمه، فلا يرضع إلا من ثديها، ولكى يطمئن قلبها، وفعلا ذهبت أمه إلى قصر فرعون، فلما رأى ثديها التقمه، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولادا، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك، وأجرت عليها النفقة والكساوى، فرجعت أم موسى بولدها راضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا، فى عز وجاه ورزق دار ولهذا جاء فى الحديث : « مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير، كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».

وبعد إتمام الرضاعة عاد موسى إلى قصر فرعون ليعيش فيه !! كأن الله تعالي يقول لفرعون : «لا يكون مرباه إلا فى دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا

بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه، ثم يكون هلاكك على يديه، ولتعلم بأنك لا تعلم سرا، ولو كنت إلها بحق لعلمت الأسرار فهل هناك إله جاهل»!!

ولما شب موسي - عليه السلام - وعلم ما يتعرض له قومه من الأذى والظلم والقتل، بدأت عداوته لفرعون وقومه، فكان مأوى لكل مظلوم - ورزقه الله تعالى وأمده ببسطة فى العلم والجسم، وحدث ما حدث من قصة قتله للقبطي الذي تشاجر مع رجل من بنى إسرائيل - كما قص القرآن ذلك فى سورة القصص، وعلى أثر هذه الفعلة - هاجر موسى من مصر إلى مدين - وحدث أيضا هناك ما حدث من قصة ابنتى شعيب والبئر وكان لهذه الواقعة فوائد - التقى بسببها بشعيب الرجل الصالح، وزوجه إحدى ابنتيه على أن يؤجره ثمانى حجج أو عشر حجج فأتم موسى العشر ثم عاد بزوجته من أرض مدين إلى مصر - فمر بجبل الطور، وهناك كلمه الله تعالي ونزلت عليه الرسالة، وأمره الله تعالى أن يذهب إلى فرعون ومعه هارون - وكان ذلك طلب موسي :

﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [طه].

وأيده الله تعالى بمعجزة اليد والعصا، فقال تعالي :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) ﴾ [طه].

قال ابن عباس عن معجزة العصا : « انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخور والشجر فلما رآه يبتلع كل شيء خاف ونفر» فنادى عليه تعالى :

﴿ خُذْهَا وَلا تَخَفْ ﴾ قيل : بأن الله أمره أن يدخل يده بين لحييها وأن يقبض عليها ففعل ذلك فإذا هي عصاه في يده.

ثم قال تعالى لهما : ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ [طه].

أقول : وتأمل في قوله تعالى : ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا ﴾ ففيه درس للداعية، فما دخل الرفق في شيء إلا زانه.

ولذلك كان يزيد الرقاشي – رحمه الله – إذا قرأ قول الله هذا يقول :

يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه

وذهب موسى وهارون عليهما السلام إلى قصر فرعون وأستأذنا في الدخول عليه، فخرج وقال له موسى :

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨) ﴾ [طه].

فرد فرعون عليهما قائلا : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) ﴾ [طه]

فرد موسى قائلا : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) ﴾ [طه]

قال فرعون : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) ﴾ [طه].

والمعنى : « فما بال القرون الأولى فإنها لم تقر بالرب الذي تدعو إليه يا موسى بل عبدت الأوثان ونحوها من المخلوقات، ومعنى : البال الحال، والشان: أي ما حالهم وما شأنهم ؟ ».

فرد موسى - عليه السلام - : ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) ﴾ [طه].

وفي مقام آخر، فى سورة الشعراء أن موسى عندما ذهب إلى فرعون، قال فرعون له :

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [الشعراء]

وبعد أن دار بينهما حوار سجلته السورة الكريمة وألقم موسى - عليه السلام - فرعون الحجة قال فرعون :

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾ [الشعراء].

فرد موسى - عليه السلام - ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾ [الشعراء].

قال فرعون : ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) ﴾ [الشعراء].

فلما أظهر موسى له معجزة العصا واليد، ورأى فرعون أمامه ثعبانا

عظيما لم يطق صبرا، فولى هاربا - فلما هدأت نفسه والتقط أنفاسه قال: « إن هذا لساحر عليم» ما فعل ذلك إلا ليخرجكم من أرضكم - قال هذا لقومه - ثم استشارهم فى أمره : « فماذا تأمرون» فأشاروا عليه بجمع السحرة فى يوم معلوم، فأرسل فرعون إلي السحرة فجاء ثمانون ألف ساحر، وقيل ستون ألف ساحر، وقيل غير ذلك فالله أعلم.

المواجهة مع السحرة :

جاء السحرة بحبالهم وعصيهم وقالوا لفرعون :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) ﴾ [الشعراء].

فلما رآهم موسى - وكان ذلك فى يوم عيد لهم - :

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) ﴾ [طه]. ومعنى يستحكم يستأصلكم.

وبعدها : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾ [طه]. ومعنى أوجس : أحس.

فلما ألقى موسى عصاه فإذا هى تلقم كل حبالهم وعصيهم، وقيل بأن رجلا أعمى كان يقف فى المشهد. فقال لمن حوله : هل ظهر على بطن حية موسى شيء قالوا : لا. فآمن فى الحال.

ولما رأى السحرة ذلك أيقنوا بأن هذا ليس بساحر وأن ما فعله ليس بسحر، ولكنها معجزة من قبل الله تعالى : لأن أعنيهم لا تسحر.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء].

قال ابن عباس : « لما سجدوا أراهم الله مقعدهم في الجنة».

فلما رأى فرعون ذلك قال لهم : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .... (٤٩) ﴾ [الشعراء].

وهل الإيمان بالله يحتاج لإذن من البشر أيها الجاهل !!

ثم قال فرعون : ﴿ .. إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٤٩) ﴾ [الشعراء].

يقصد موسى هو الذى علمهم السحر، وأنهم اتفقوا مع بعض على ذلك، ثم هددهم بالقتل والصلب فقال :

﴿ ... فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) ﴾ [الشعراء].

قال السحرة : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ [الشعراء].

ولما ثبتوا على إيمانهم، قام بقتلهم وصلبهم وتقطيع أيديهم وأرجلهم.

قال ابن عباس : « أصبحوا سحرة فجرة وأمسوا شهداء بررة ».

فكان هذا الطاغية أول من صلّب.

قال البيضاوى وكانوا ثمانين ألفا أو سبعين ألفا، أى عدد من قتلهم من السحرة.

هامان يبنى الصرح :

ونفخ فرعون نفسه واستدعى وزيره هامان وأمره ببناء الصرح لماذا ؟ ليطلع من عليه على إله موسى وقال :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) ﴾ [القصص].

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾ [غافر]. ومعنى تباب : هلاك

روى صاحب تفسير الكشاف وغيره : «أن فرعون ارتقى فوق هذا الصرح ورمى بسهم إلى السماء وأراد الله أن يفتنه فرد النصل إليه مخضبا بالدم، فقال: لقد قتلت إله موسى» أ.هـ. لقد صار موسى بلا إله يعبد،

يقول تعالي : ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ (٣٧) ﴾ [غافر]

ونزل وقد إزداد علوا وعتوا، وجمع قومه وقال :

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف].

وفى سورة النازعات قال تعالى حاكيا عنه :

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات].

قصة ماشطة بنت فرعون :

إن الإيمان بالله تعالي عندما يتغلغل فى القلب، فإن الإنسان يتحول إلي صخرة عاتية يتحطم عليها كل قوى الشر والكفر، ويستعذب الإنسان العذاب فى سبيل مرضات خالقه جل وعلا، ويصير المؤمن كسبيكة الذهب لا يزيدها لهب النار إلا لمعانا وبريقا، وهذه قصة تدل على ثبات أهل الإيمان، وما أحوجنا إليها فى زمن طأطأ أهل الحق فيه رءوسهم، ورفع أهل الباطل فيه شوكتهم.

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «لما أسرى بي مرت بى رائحة طيبة، فقلت : ما هذه الرائحة ؟ قال : - أى جبريل - ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط المشط من يدها " أى وهى تسرح لبنت فرعون رأسها" فقالت : باسم الله، فقالت بنت فرعون أبى، قالت : ربى وربك ورب أبيك، قالت أو لك رب غير أبى ؟ قالت : نعم ربى وربك ورب أبيك الله. قال: فدعاها، فقال : آلك رب غيرى؟ قالت : نعم، ربى وربك الله عز وجل.

قال فأمر ببقرة من نحاس، فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها، قالت : إن لى إليك حاجة، قال : ماهى ؟ قالت : تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع، قال : ذاك لك لما لك علينا من الحق، قال : فأمر بهم فألقوا واحدا واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم، فقال : يا أمه قعى ولا تقاعسى، فإنك على الحق.وقال : وتكلم أربعة فى المهد وهم صغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم - عليه السلام-».

قلت : وهذه جريمة أخرى من جرائم فرعون تضاف إلى الجرائم السابقة.

تعذيب السيدة آسية بنت مزاحم :

وهذا نموذج فريد من نماذج الصمود ضد الباطل، تقوم به امرأة لتعطينا درسا فى حسن الثبات على المبدأ، فرفع الله عليها وساما مخلدا، فنزلت آخر سورة التحريم لتخلد ذكرها إلى يوم القيامة.

عن القاسم بن أبى نبرة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال: غلب رب موسى وهارون، فتقول : آمنت برب موسى وهارون، فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها، فأن مضت على قولها فألقوها عليها، وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة، فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح.

وفى بعض الروايات : «كانت امرأة فرعون تعذب فى الشمس، فإذا انصرف عنها (أى فرعون) أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها فى الجنة.

قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فوالله ماضر امرأته

كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحدا إلا بذنبه.

وفي بعض الروايات إن فرعون : (أوتد لها أوتادا فشد يديها ورجليها فدعت آسية ربها فقالت : ﴿ رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ فوافق ذلك أن حضرها فرعون، فضحكت حين رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون ألا تعجبون من جنونها إنا نعذبها وهى تضحك، فقبض الله روحها فى الجنة رضى الله عنها.

فضلها رحمها الله تعالى :

(١) قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم].

قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار.

(٢) عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

الابتلاء بالنقم بعد النعم :

وأعلن فرعون وقومه الحرب على موسى وقومه كما صور القرآن ذلك.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا

فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾ [الأعراف].

وتوجه موسى إلىٰ ربه يدعو على فرعون وقومه وهارون يؤمن من وراءه فقال :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس].

فقال الله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾ [يونس].

وبدأ تأديب الطغاة :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) ﴾ [الأعراف].

والسنين : هى شدة الجوع، وفى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ كان يستعيذ بالله من الجوع : «وأعوذ بك من الجوع فبئس الضجيج» ونقص من الثمرات : محقت البركة وتمردت الأشجار على إعطاء الثمار، قال كعب : «كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة !!».

فجمع الله عليهم بلاءين : « شدة الجوع مع قلة الرزق ».

وفى بعض الآثار : « أن الله إذا غضب على قوم نادى مناد بين السماء والأرض يا بركة ارتفعي ويا معدة اتسعى ويا نفس لا تشبعى » ثم تتابع البلاء عليهم.

قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) ﴾ [الأعراف].

أما الطوفان : قال المفسرون : هو فيضان النيل الذى أغرق الأرض وأهلك الزرع ومعه ماء المطر فى ظلمة شديدة لا يرون فيها شمسا ولا قمرا، قيل لمدة ثمانية أيام.

وأما الجراد فهو آفة تأكل الزرع والأشجار والأبواب وأسقف المنازل والثياب والأمتعة.

وفي عصرنا الحديث سمعنا عن النمل الأبيض الذى ظهر في بعض البلدان، قيل بأنه كان يأكل الحديد، وكذلك البكتريا آكلة لحوم البشر، والإيدز المسمى بطاعون العصر، وإنما جاء هذا البلاء بسبب ظهور الفواحش وارتكاب المنكرات ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما القمل : فهو صغار الجراد، كان يأكل المحاصيل ويدخل بين ثوب الرجل وبدنه فيمص دمه.

قال سعيد بن جبير : « فأخذت في أبشارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كأنه الجدرى ».

أما الضفادع : فلقد أمر الله تعالى موسى أن يذهب إلى النيل ويشير بعصاه من النيل إلى قوم فرعون، ففعل موسى فخرجت الضفادع من النيل كالجيوش فملأت بيوتهم وآنيتهم، فكان أحدهم لا يكشف ثوبا ولا إناء ولا طعاما

ولا شرابا إلا وجد فيه الضفادع، وقيل : كانت الضفادع تتقيأ صديدا فى الأطباق والأطعمة أمامهم.

وعن ابن عباس : « إن الضفادع كانت تقذف نفسها فى القدور وهى تفور وفي التنانير وهى مسجورة»، وصارت طرق المدينة والشوارع ملأى بجثث الضفادع وكذلك البيوت.

أما الدم : فكان أحدهم يرفع الإناء ليشرب منه فيتحول الماء إلى دم نجس فكانوا لا يشربون ماء إلا وجدوا فيه الدم.

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾ [الأعراف].

الغـــرق :

أمر الله تعالى موسى أن يجمع بنى إسرائيل ويسير بهم ليلا إلي أرض سيناء.

قال تعالي : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) ﴾ [الدخان]

فجمع موسى عليه السلام بنى إسرائيل وانطلق بهم ليلا، فلما علم فرعون بذلك جمع جيشه وانطلق خلف موسى ومن معه.

ووصل موسى بمن معه إلي شاطئ البحر، وعلمت بنو إسرائيل أن فرعون وجيشه من وراءهم فخافوا وقالوا لموسي :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء].

فقال لهم موسي – عليه السلام – :

﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء : ٦٢].

وجاء التأييد الفورى لموسى – عليه السلام –.

قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء].

وعبر موسى ومن معه البحر، ولما وصل فرعون إلى شاطئ البحر ووجده قد انفلق فقال : « لقد انشق البحر فرقا منى ومهابة من عظمتى وعبر فرعون بجنوده البحر خلف موسى ولما توسط الماء، عاد الماء لسيولته، وهنا لما أدركه الغرق أحب أن يمكر على الله فقال :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾ [يونس].

والتوبة عند الإحاطة التى فيها الهلكة لا تنفع ولا تقبل لأنها نظير الغرغرة عند لحظة الإحتضار.

عن ابن عباس عن النبى ﷺ : «قال جبريل : لو رأيتنى وأنا آخذ من حماء البحر – أى طينه – فأدسه فى فىّ فرعون، مخافة أن تدركه الرحمة ».

قال تعالى ردا على شهادته :

﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ [يونس].

وهكذا شاءت إرادة الله تعالي أن ينجى بدن فرعون من الإختفاء، ويلهم الفراعنة فن التحنيط ونرى جثثهم إلى اليوم، لتكون لنا عظة وعبرة ولنعلم أن الله يحكم ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

وهكذا تطوى صفحة من صفحات الظلم فى تاريخ البشرية.

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾ [القصص].

وقال تعالي : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان].

وورث بنو إسرائيل قوم فرعون وأكلوا خيراتهم.

قال تعالى : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ [الأعراف].

(١٠) قارون عابد المال

عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الدينار والدرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم ».

وعن كعب بن عياض – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتى المال ».

وعن حكيم، بن حزام قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا المال خضر حلو فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى ».

وقال عمر بن الخطاب : «احذروا المال فإنه له ضرواة كضرواة الخمر».

وصدق عمر – رضى الله عنه – فكم من أقدام زلت بعد ثبوتها، وكم من قلوب قست بعد خشوعها، وكم من أفئدة انقطعت عن الله بعد اتصالها، وكم من نفوس كفرت بالله بعد إيمانها بسبب المال، وصدق النبى ﷺ : «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار». رواه البخارى.

هذا وقصة قارون هذه أدل دليل على طغيان المال الذى يعمى ويصم ويصد عن سبيل الله ويعمى الأفئدة قبل الأبصار.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص].

قال ابن جرير: وقول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى.

قال قتادة : كان يسمى بالمنور لحسن صوته بالتوراة، ولكن عدو الله نافق كما نافق « السامرى » فأهلكه البغى لكثرة ماله، وقيل كان من السبعين رجلا الذين اختارهم موسى للميقات.

قوله: ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِم ﴾ تكبر عليهم وتطاول وتجاوز الحد، قال شهر بن حوشب إزداد فى ثيابه طولا ترفعا على قومه.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص].

قال ابن كثير : إن مفاتحة كان يثقل حملها على الفئام من الرجال الشداد، وقد قيل إنها كانت من الجلود، وإنها كان تحمل على ستين بغلا فالله أعلم، وعن ابن عباس : « كانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء ».

وقال أبو رزين : « يكفى الكوفة مفتاح ».

ووجه الصالحون إليه خمس نصائح :

الأولى : ﴿ ... لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص].
والمعنى : لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك، والفرح المنهى عنه كما قال مجاهد « الأشرو البطر. أى : الذي يدعو صاحبه إلى الوقوع فيما يغضب الله، وينسيه ذكره وشكره أ. هـ.

وقال ابن عباس : « إن الله لا يحب الفرحين « أى المرحين.

وقال مجاهد : الأشرين البطرين الذى لا يشكرون الله على ما أعطاهم.

الثانية : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] أى: استعمل المال في طاعة الله لتحصل على الثواب الجزيل فى الدار الآخرة، والمراد أن يصرف المال إلي ما يؤديه إلى الجنة ويسلك طريقة التواضع.

الثالثة : ﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن ... (٧٧) ﴾ [القصص] أى : مما أباح الله لك فيها من الماكل والمشارب والملابس والمساكن، والمناكح،

فإن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، ولزوارك عليك حقا فأت كل ذى حق حقه.

وقيل لا تنس نصيبك من الدنيا، هو الكفن.

الرابعة : ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى : أحسن إلي خلقه بمالك كما أحسن هو إليك.

الخامسة : ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ أى : لا تسىء إليهم ولا تفسد فيهم، فتعاملهم ضد ما أمرت فيهم فيعاقبك ويسلك ما وهبك.

فلم يسمع قارون لهذه النصائح، فتعاظم واختال، ونسى الكبير المتعال، وأرغى وأزبد وقال قولته التى قصمت ظهره :

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)﴾ [القصص].

قال قتادة ومقاتل والكلبى : كان قارون أقرأ بنى إسرائيل للتوراة، فقال إنما أوتيته لفضل علمى واستحقاقى لذلك.

وقال الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « لولا رضى الله عنى ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال وهكذا يقول من لا علم عنده ».

وقال الأستاذ عبد السلام بدوى فى كتابه من أنباء الرسل : « وكثيرا ما نقول هذه العبارة ببساطة ونحن لا ندرى أبعادها ولا نسبر أغوارها، كأن يقول أحدنا : لقد كونت ثروتى بذراعى، ونميت مالى بشطارتى، وهزمت أعدائى بشجاعتى ناسيا أن الله هو المدبر والمقدر ».

فرد الله تعالى عليه : ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) ﴾ [القصص]،، أى : من كثرتها فهم فى النار.

قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ... (٧٩) ﴾ [القصص].

قال الحسن : « خرج فى الحمرة والصفرة » - خرج فى الخدم والعبيد والزينة، فلما رآه طلاب الدنيا على هذا الحال.

قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص].

ولكن أهل العلم النافع الذين نظروا إلي باطن الدنيا حين نظر الناس إلي ظاهرها قالوا كما قال قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص].

قال صاحب الكشاف : (ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى).

وقوله ﴿ .. وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص]. أى : لا يوفق لها، وقال السدى : ولا يلقي الجنة إلا الصابرون، وقال ابن جرير: ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون فى الدار الآخرة.

نهاية محتومة :

قال تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) ﴾ [القصص].

وفى الحديث الصحيح : «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة ».

﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص] أى : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله، ولا كان هو فى نفسه منتصرا فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره.

ولما رأى طلاب الدنيا ما أحل بقارون، رجعوا إلى أنفسهم وندموا على ما بدر منهم. قال تعالى :

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [القصص].

قال الإمام الفخر الرازى : أعلم أن (وى) كلمة مفصولة عن (كأن)، وهى كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم – لما شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا : وى . ثم قالوا : كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاءً وفتنة.

وذكر الفراء أن معنى ويكأن (أى ويل أعلم).

وقال قتادة :معناه (ألم تر أن الله) وقال ابن جرير : وهو أقوى الأقوال.

ثم وجهنا القرآن إلى الوجهة الحق وإلي الطريق الصواب وإلي الملك الذي لا يحول ولا يزول فقال تعالى :

﴿ تِلْكَ الـدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِيـنَ لا يُرِيـدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص]

عن على ابن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : « إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها ».

وعلى ما تقدم فإنه يجب على السلم ألا يغتر بكثرة مال فإن المال إلي زوال وعليه بالرضا فى كل الأحوال يسعد ويفرح وفى الحديث الشريف : « إن الله تعالى يبتلي العبد فيما أعطاه، فإن رضي بما قسمه الله له بورك له فيه ووسعه، وإن لم يرض لم يبارك له، ولم يزد على ما كتب له ».

(١١) السامرى وعاقبة المكر السيء

السامرى : هو موسى السامرى، وكان من بنى إسرائيل « من قوم موسى » قيل : بأنه وُلد فى نفس العام الذى ولد فيه موسى بن عمران - عليه السلام - فأخذه أبوه وهربه من جنود فرعون خشية أن يقتلوه، وأدخله فى كهف فى الجبال، فكان جبريل ينزل عليه يرعاه ويظن أنه موسى ابن عمران النبى - حتى بلغ معه مبلغ السعى.

وهذا دليل صدق على أن علم الغيب تفرد به الله سبحانه وحده كما قال بعضهم : « والله ما موسى الكليم ولا المسيح ولا محمد عرفوا ولا النفس البسيطة لا ولا الروح المجرد كلا ولا جبريل وهو إلى مقام القرب يصعد من كنه ذاتك غير أنك أوحادى الذات سرمد». (من أبناء الرسل ج١ ص٢٧٨)

ويصدق قول الشاعر :

فموسى الذى رباه فرعون مرسل ... وموسى الذى ربـاه جبريل كافـر

وكان هذا الوليد هو موسى السامرى : الذي استغل غياب موسى فى ميقات ربه على الطور يتلقى الألواح. فصنع لهم عجلا من حليهم : وقال لهم : ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴾.

رأى موسى السامرى هذا يوم انغلاق البحر لعبور بنى إسرائيل بعد أن وقف على الساحل .. ليرى ما يصنع فرعون وجنوده .. رأى جبريل بعمامته السوداء يخوض البحر .. بفرسه « حيزوم ».. استدراجًا لجواد فرعون.

قال المفسرون : جاء جبريل على فرس الحياة .. وهى بلقاء أنثى .. لا تصيب شيئا إلا حيى. بمعنى إذا مست التراب بحافرها دبت الحياة فى التراب.

فلما رآه السامرى على تلك الفرسة عرفه .. وقال : إن لهذه الفرس لشأنا

عظيما .. وأخذ قبضة من التراب الحى .. لاستغلاله فى أغراضه السحرية .. وألاعيبه الخداعية .. ثم انطلق كالريح فلحق ببنى إسرائيل.

ولما صعد موسى بعد ذلك الجبل بنقبائه (أى يوم الميقات .. على جبل الطور).. ولم يعد بعد انقضاء الأجل الذي واعدهم عليه .. وهو ثلاثون ليلة قال لهم السامرى : إنما أخلف موسى ميعادكم .. لما معكم من الحلى المسروقة من المصريين .. فهى حرام عليكم .. لأنكم حصلتم عليها بطريق غير مشروع.. وطالبهم بالتخلص منها .. وإلقائها فى النار .. وألقوها فعلا.. فصنع من تلك السبيكة عجلا جسدا .. وألقى السامرى قبضة التراب الحى .. فى فم العجل الذي صنعه من حليهم (أى من ذهبهم) .. فخار خوار البقر ..

واستزلهم الشيطان – وغلبتهم طبيعة الوثنية – التى أشربوها فى قلوبهم .. فقالوا : هذا إلهنا .. نسيه موسى هنا .. وخرج للقائه على الجبل .. فعبدوه ورقصوا حوله .. وكانت أمنيتهم التى أبدوها لموسى – عليه السلام – يوم نجاتهم وهلاك فرعون .. عندما مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم .. وقالوا له : يا موسى :

﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾

اقرأ قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) ﴾ [طه].

عن الحسن البصرى : أن اسم العجل بهموت .. وقد عكفوا عن عبادته. وأحبوه حبا ما أحبوا شيئا مثله .. فقال لهم هارون :

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾ [طه].

وكان موسى - عليه السلام قد استخلف هارون قبل ذهابه للميقات.

قال تعالى : ﴿ ... وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾ [الأعراف].

ولما أنكر هارون عليهم أشبعوه ضربا حتى كادوا يقتلوه.

وقبل عودة موسى إليهم، كان الله قد أخبره بعبادة قومه للعجل قال تعالى:

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) ﴾ [طه].

وعاد موسى إلي قومه غضبان أسفا بعد أن تلقى الألواح، ورآهم موسى على البعد يعكفون على العجل يعبدونه.. ويرقصون حوله مكاء وتصدية - فاستولى عليه غضب شديد .. وثار ثورة عارمة .. وألقى الألواح من يده على الأرض فى ثورته وقيل أنها كُسرت. (المكاء الصفير والتصديه التعفيق)

وأقبل على قومه قائلا :

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) ﴾ [طه]. فقصوا على موسى ما حدث من السامرى وكيف صنع لهم عجلا عبدوه.

فاقبل موسى على أخيه هارون فامسك بلحيته وبرأسه بعنف وقسوة قائلا

﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) ﴾ [طه].

فأجاب هارون : ﴿ ... قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) ﴾ [الأعراف].

وفى سورة طه : ﴿ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ [طه].

قلت : ونزلت هذه الكلمات على قلب موسى – عليه السلام – بردا وسلاما فهدأت نفسه :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ﴾ [الأعراف].

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ [الأعراف]

ثم انطلق موسى – عليه السلام – تجاه رأس الأفعى «السامرى» وقال:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) ﴾ [طه]. والمعنى : أى ما شأنك وما الذى حملك على ما صنعت ؟

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) ﴾ [طه].

أراد بذلك أنه رأى جبريل على فرس الحياة فألقى في ذهنه أن يقبض

قبضة من أثر الرسول، وأن ذلك الأثر لا يقع علي جماد إلا صار حيا، ومعنى (فنبذتها) فطرحتها فى الحلى المذابة المسبوكة على صورة العجل، (وكذلك سولت لى نفسى).

قال الأخفش : أى زينت.

فلما سمع موسى - عليه السلام - منه ذلك :

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ .. ﴾ (٩٧) [طه].

أى اذهب من بيننا واخرج عنا فإن لك فى الحياة : أى ما دمت حيا (أن تقول لا مساس) - ومعنى لا مساس : أى لا يمسك أحد ولا تمس أحدا، وكان إذا ماسه أحد حم الماس والممسوس، فلذلك كان يصيح إذا رأى أحدا : لا مساس.

هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فقال له :

﴿ .. وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ .. ﴾ (٩٧) [طه] وهو يوم القامة، أى أن لك موعدا لعذابك، وهو كائن لا محالة. قال الزجاج : أى يكافئك الله على ما فعلت فى القيامة والله لا يخلف الميعاد، ثم قال له :

﴿ ... وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ (٩٧) [طه].

والمعنى : انظر إلي آلهك الذى دمت وأقمت علي عبادته لنحرقنه أى بالنار - قال ابن عباس (لنحرقنه) قال : بالنار، وأخرج أبن أبى حاتم عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ﴾ خفيفة

ويقول : إن الذهب والفضة لا تحرق بالنار، بل تسحل بالمبرد ثم تلقى على النار فتصير رمادا:

﴿ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ النسف نقض الشيء ليذهب به الريح قال ابن عباس : « لنذريه فى البحر ».

وهكذا خسر الماكر الكذاب الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [هود].

(١٢) بلعام بن باعوراء الشبيه بالكلب

عجب أمر هذه الدنيا، كم من عاشق لها قتلت، وكم من مفتون بها خذلت، وكم أضلت قوما بعد هدى كانوا عليه.

وصدق النبى ﷺ عندما قال : « فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء».

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «ما ذئبان ضاريان فى حظيرة يأكلان ويفسدان بأرض فيها من حب الشرف وحب المال فى دين المرء المسلم».

ونقدم قصة بلعام كما صورها القرآن ليتبين لنا من خلالها أن العالم الذى لا ينفعه علمه يصل إلى درجة يتساوى فيها مع الكلب فى أحسن حالاته وأحط صوره والعياذ بالله تعالى.

بلعام بن باعوراء حبر كبير من أحبار اليهود، تلقى العلم على يد موسى ابن عمران – عليه السلام –، وقيل كان عنده اسم الله الأعظم، وكان مجاب الدعوة، أرسله موسى إلى قوم مدين ليدعوهم إلي التوحيد الخالص، فلما ذهب إليهم ودعاهم، أغروه بالمال مقابل أن يترك دعوته، وقيل وعرض عليه الملك أن يزوجه بأحلى النساء، ولما رأى بلعام بريق المال وجمال النساء، سال لعابه، « فكر وقدر»، « ثم نظر » وقال فى نفسه : « الله أم الشيطان ؟ موسى أم المال »؟ الدنيا أم الآخرة ؟ ووصل إلي مجال إنعدام الوزن، ثم هداه هواه إلي اختيار المال والشيطان، فهوى بعد أن اتبع الهدى، وزلت قدمه بعد ثبوتها، وأصبح فى الأرض حيران كالذي استهوته الشياطين، وتمرغ فى الطين بعد أن تربع على قبة الفلك.

عزيزى القارئ : وأسوق إليك حديثا ترتعد منه الفرائض، وتدمع منه العيون، وتوجل منه القلوب، نسأل الله الثبات على الدين إلى أن نلقاه.

عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : «إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت عليه بهجته، وكان عليه رداء الإسلام اعتراه إلي ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك، قال : قلت يا نبى الله أيهما أولى بالشرك المرمى أو الرامى ؟ قال : بل الرامى».

وفى رواية أخرى عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - : أن رسول الله - صلي الله عليه وسلم - قال : « أخوف ما أخاف على أمتى ثلاث : رجل قرأ كتاب الله تعالى، حتى إذا رئيت عليه بهجته، وكان عليه رداء الإسلام أعاره الله إياه، اخترط سيفه، فضرب به جاره، ورماه بالشرك. قيل : يا رسول الله ! الرامى أحق به أو المرمي؟ قال : الرامى - ورجل آتاه الله سلطانا، فقال : من أطاعنى، فقد أطاع الله، ومن عصانى، فقد عصى الله، وكذب، ليس بخليقة أن يكون جنة دون الخالق - ورجل استخفته الأحاديث، كلما قطع أحدوثة، حدث بأطول منها، إن يدرك الدجال، يتبعه.

ولعل المقصود بالسلطان فى الحديث هو السلطان الجائر، وذلك لثبوت أحاديث صحيحة توجب السمع والطاعة للإمام العادل وللجائر أيضا ما لم يأمر بمعصية، أما الرجل الثالث وهو الذى استخفته الأحاديث وهو الرجل الذى يختلق الأحادليث ويرويها والله أعلم.

قال تعالي : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ (يا محمد) نبأ (خبر).

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) ﴾ [الأعراف].

قال الشيخ كشك : «إن السلخ فى الأصل كشط الجلد عن اللحم، وهو

يعطينا أنه لا عودة، فكما أن عودة الجلد إلي اللحم بعد سلخه أمر محال كذلك عودة هذا الذى أظلم قلبه بحب الدنيا، عودته إلى آيات ربه أمر محال».

﴿ أَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف]. وفى قراءة : ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَان ﴾ أى : صار قائدا للشيطان والشيطان خلفه كما قيل.

وكنت أمرءا من جند إبليس فارتقي بى. الحال حتى صار إبليس من جندى.

﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف]. أى : من الهالكين الحائرين العاملين بخلاف علمهم.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف].

أى : لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات، التى آتيناه إياها.

﴿ وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ﴾ [الأعراف].

قال مقاتل : رضى بالدنيا قال أبو الراهوية : «تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان! وكذا قال عبد الرحمن بن جبير وغير واحد »

﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف].

أى : اتخذه إلها يعبد. قال عطاء : أراد الدنيا وأطاع شيطانه.

الجــزاء :

قال تعالى : ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾ [الأعراف].

أقول : «ما أقبحه من منظر وما أعدله من عقاب : إنه تشبيه لحاله بالكلب فى أخس حالاته لا فى أمانته وحراسته، إنما فى تعبه وشقائه فهو دائما يلهث، أى يخرج لسانه ويتنفس بصعوبة فى كل حالاته سواء زجرته وقسوت عليه أم أرحته وعطفت عليه ».

واعلم أن : «من خصال الكلب "أيضا" أنه دائما يشم دبره دون سائر أجزائه، ولا يحب أن يشاركه غيره فى جيفته ولو كانت تكفى مائة كلب ».

كلام قيم للإمام ابن القيم :

قال رحمه الله : « فشبه الله سبحانه من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذى منعه غيره. فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذى هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدرا، وأخسها نفسا، وهمته لا تتعدى بطنه. وأشدها شرها وحرصا. ومن حرصه أنه لا يمشى إلا وخطمه فى الأرض يتشمم، ويتروح حرصا وشرها. ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته.

وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة العذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبا يتناول معه منها شيئا إلا هر عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه.

ومن عجيب أمره وحرصه : أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية، وحال

رزية نبحه، وحمل عليه، كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته فى قوته، وإذا رأى ذا هيأة حسنة وثياب جميلة ورياسة، وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفى تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب فى حال لهثه سر بديع، وهو أن هذا الذى حاله مما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا، لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة. فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم فى حال إزعاجه وتركه واللهف واللهث شقيقان وأخوان فى اللفظ والمعنى.

... فالكلب من أقل الحيوانات صبرا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش وإن كان فيه صبر على الجوع. وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثا يلهث قائما ، وقاعدا، وماشيا، وواقفا، وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص فى كبده توجب له دوام اللهث. فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة فى قلبه توجب له دوام اللهث فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.(١)

قال مجاهد : ذلك مثل الذى أوتى الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس : إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تتركه لم يهتد إلي خير، كالكلب إن كان رابضا لهث، وإن طرد لهث.

وقال الحسن : هو المنافق لا يثبت على الحق، دعى أو لم يدع، وعظ أو لم يوعظ. كالكلب يلهث طردا وتركا.

وقال عطاء : ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

---

(١) الكلب يلهث دائما لخفض درجة حرارته لنقص الغدد الخاصة بافراز العرق، وقد شبه بلعام وأمثاله بالكلب في صفاته المرذولة وإلا فالكلب له صفات حسنة مثل أنه لا يسرق ويتصف بالوفاء لصاحبه إلى أبعد الحدود .

وقال أبو محمد بن قتيبة : كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث فى حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش. فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته، وقال : إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث . أ.هـ.

ونظيره قوله سبحانه : ﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ ... ذَّلكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ [الأعراف]- أى : ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود، بعد أن علموا بها وعرفوها . فحرفوا وبدلوا وكتموا صفة رسول الله ﷺ وكذبوا بها ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ﴾ أى : فاقصص عليهم هذا القصص الذي هو صفة الرجل المنسلخ عن الآيات فإن حدثه المذكور كمثل هؤلاء القوم المكذبين من اليهود الذين تقص عليهم :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون ﴾ فى ذلك ويعلمون فيه أفهامهم فيتزجون عن الضلال ويقبلون على الصواب.

قال تعالي : ﴿ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير – رحمه الله – : «أى ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله ».

وفى الحديث الشريف : «ليس لنا مثل السوء، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه ». فنعوذ بالله من السلب بعد العطاء، ومن الضلالة بعد الهدى. آمين.

(١٣) مصرع مسيلمة الكذاب

قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) ﴾ [الزمر].

وقال تعالي : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) ﴾ [هود].

مسيلمة الكذاب، هو كذاب اليمامة، ادعى النبوة فى عهد رسول الله ﷺ فشانه الله وفضحه بكذبه، ثم أخذ يهذى بكلمات تثير الضحك والسخرية وادعى أنها قرآنا من السماء !! مثل :

«يا ضفدع بنت الضفدعين، نقى لكم نقين، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين، رأسك فى الماء وذنبك فى الطين ».

«والمبذرات زرعا، والحاصدات حصدا، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا، والخابزات خبزا، والثاردات ثردا، واللاقمات لقما، إهالة وسمنا، لقد فضلتم على

أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والناعى فواسوه».

« والفيل، وما أدراك ما الفيل، له زلوم طويل ».

«والليل الدامس ، والذئب الهامس ...» *إلى آخر هذا الهراء السخيف.*

وفد عمرو بن العاص فى أيام جاهليته على مسيلمة، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم فى هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال : وما هى ؟ قال : أنزل عليه « والعصر ...» قال : ففكر مسيلمة ساعة، ثم رفع رأسه فقال : ولقدل أنزل علىّ مثلها، فقال له عمرو، وما هى؟ فقال مسيلمة : « يا وبر يا وبر، إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر. ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو: والله، إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب».

وذكر علماء التاريخ أنه يتشبه بالنبى ﷺ، بلغه أن رسول الله ﷺ بصق فى بئر فغزر ماؤه، فبصق فى بئر فغاض مآوه بالكلية، وفى أخرى فصار ماؤه أجاجا. وتوضأ وسقي بوضوئه نخلا فيبست وهلكت.

وأتى بولدان يبرك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم، فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه.

ويقال : إنه دعا لرجل أصابه وجع فى عينيه فمسحهما فعمى.

قدم هذا اللعين المدينة وافدا إلى رسول الله ﷺ، وقد وقف عليه رسول الله ﷺ، فسمعه وهو يقول : إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته. فقال له : لو سألتنى هذا العود – لعرجون في يده – ما أعطيتكه، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، إنى لأراك الذي أريت فيه ما أريت. وكان رسول الله ﷺ قد رأى فى المنام كأن فى يديه سوارين من ذهب، فأهمه شأنهما، فأوحى الله إليه فى المنام

انفخمها، فنفختهما فطارا، فأولهما بكذابين يخرجان، وهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة، وهكذا وقع فإنهم ذهبا وذهب أمرهما، أما الأسود فذبح فى داره، وأما مسيلمة فعقره الله على يدي وحشى بن حرب، رماه بالحربة فأنفذه كما تعقر الإبل، وضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه، وذلك بعقر داره فى حديقة الموت، وقد قتل قبله وزيراه : محكم ابن الطفيل، والرجال بن عتفوة.

روى البخارى أن مسيلمة كتب إلي رسول الله ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم.

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك.

أما بعد ... فإنى قد أشركت معك فى الأمر، فلك المدر ولى الوبر – ويروى فلكم نصف الأرض، ولنا نصفها – ولكن قريشا قوم يعتدون.

فكتب إليه رسول الله ﷺ :

بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلي مسيلمة الكذاب.

سلام على من اتبع الهدي.

أما بعد : « فإن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

لما مات رسول الله ﷺ زعم أنه استقل بالأمر من بعده، واستخف قومه فأطاعوه، فلم يمهله الله بعد وفاة رسوله ﷺ ، حتى سلط الله عليه سيفا من سيوفه، وحتفا من حتوفه، فعج بطنه، وفلق رأسه، وعجل الله بروحه إلى النار، فبئس القرار.

(١٤) عمر بن لحى

هو عمرو بن لحى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء الخزاعى قال عنه رسول الله ﷺ : « أريت عمرو بن لحى بن قمعة ابن خندف أبا كعب هؤلاء يجر قصبه (أمعاءه) في النار» وأخبر الله نبيه بذلك لأنه بدل وغير دين سيدنا إبراهيم (الحنيفية) وهو الذي جاء بالصنم هبل من الشام إلي مكة ووضعه في الكعبة فكان الناس يطوفون بهما وكان ذلك أصل عبادة الأصنام فى الحجاز وانتشرت بذلك عبادة الأصنام فى العرب.

ولأن عمرو بن لحى أيضا أول من سيب السائبة وقال عنه ﷺ : «أريت جهنم يحطم بعضها ورأيت عمرا يجر قصبه (أمعاءة) وهو أول من سيب السوائب».

(١٥) قتلى المشركين

ويشملون قتلي بدر وعددهم سبعون قتيلا وأولهم الأسود بن عبد الأسد أول قتيل في بدر ومن بدأ المعركة حينما أراد أن يهدم بئر بدر الذى حفره المسلمون فقتله سيدنا حمزة بن عبد المطلب وكذلك قتلي أُحد وقتلي الغزوات جميعها من المشركين، وجميع المشركين الذين ماتوا على الشرك إلي يوم القيامة.

(١٦) حابسة الهرة

هى امرأة من حيمر وهى التى قال عنها ﷺ : « عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتي ماتت فدخلت النار، لا هى أطعمتها ولا سقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكلف من خشاش الأرض» ونستفيد من هذا الحديث فضل إطعام الحيوانات والطيور لقول النبى ﷺ : « فى كل ذات كبد رطبة أجر».

(١٧) أخو بنى دعدع

وهو رجل من بنى دعدع كان يسرق عكاز أو عصا الحجاج وسرق بدنتى رسول الله ﷺ، وقال فيه ﷺ : «دخلت الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فإذا أكثر أهلها النساء ورأيت فيه ثلاثة يعذبون: امرأة من حمير طوالة ربطت هرة لها لم تطعمها ولم تسقها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض فهى تنهش قُبلها ودبرها، وهى حابسة الهرة الذي ذكرت سلفا - ورأيت فيها أخا بنى دعدع الذي كان يسرق الحاج بمحجنه فإذا فطن له قال : إنما تعلق بمحجنى» والذى سرق بدنتى رسول الله ﷺ.

أهم المراجع

١- الاصابة لابن حجر.

٢- تاريخ الخلفاء للسيوطى .

٣- صفة الصفوة لابن الجوزى.

٤- أبو نعيم الحلية .

٥- تاريخ ابن عساكر.

٦- البخارى .

٧- كنز العمال .

٨- البداية والنهاية لابن كثير .

٩- مسلم .

١٠- البيهقى .

١١- التهذيب للنوى.

١٢- طبقات ابن سعد .

١٣- المستدرك للحاكم.

١٤- الموطأ لمالك .

١٥- مناقب عمر لابن الجوزى .

١٦- الطبرانى .

١٧- الترمذى .

١٨- مجابو الدعوة لابن أبى الدنيا .

١٩- الموفقيات للزبير بن بكار .

٢٠- المعارف للدنيورى .

٢١- تاريخ الطبرى .

٢٢- أسد الغابة لابن الأثير .

٢٣- مسند الإمام أحمد .

٢٤- سنن البيهقى .

٢٥- السيرة النبوية لابن هشام .

٢٦- المعارف للدينورى .

٢٧- فتح القدير .

٢٨- روضة المحبين لابن القيم .

٢٩- فى ظلال القرآن .

٣٠- مفاتيح الغيب .

٣١- تلبيس إبليس لابن الجوزى .

٣٢- القيامة الكبرى لعمر الأشقر .

وغيرها ....

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس